wadod.org

الذخائر

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق

في هذا العدد:

- الألسنية المعاصرة والعربية ..... أ.د. رشيد عبد الرحمن العبيدي
- القراء والحركة الفكرية في العهود الإسلامية الأولى ..... د. هادي حسين حمود
- تذكرة الألباب بأصول الأنساب - للبتي البلنسي الأندلسي
  تحقيق: السيد محمد مهدي الموسوي الخرسان - تقديم: السيد هارون أحمد العطاس
- عمر بن عبد الله العبلي - حياته وما بقي من شعره ..... أ. مهدي النجم
- المسكوكات الكوفية ..... أ. كامل سلمان الجبوري
- فهرس مخطوطات مكتبة الروضة الحسينية ..... أ. سلمان هادي آل طعمة
- جهود المرزباني في تكوين رؤية نقدية شاملة من خلال كتابيه (معجم الشعراء) و(الموشح)
  أ. قيس كاظم الجنابي
- أصالة البحث النفسي عند ابن رشد ..... أ. عجيل نعيم جابر
- أنباء التراث: إصدارات .....

العدد الأول - السنة الأولى - شتاء ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

wadod.org

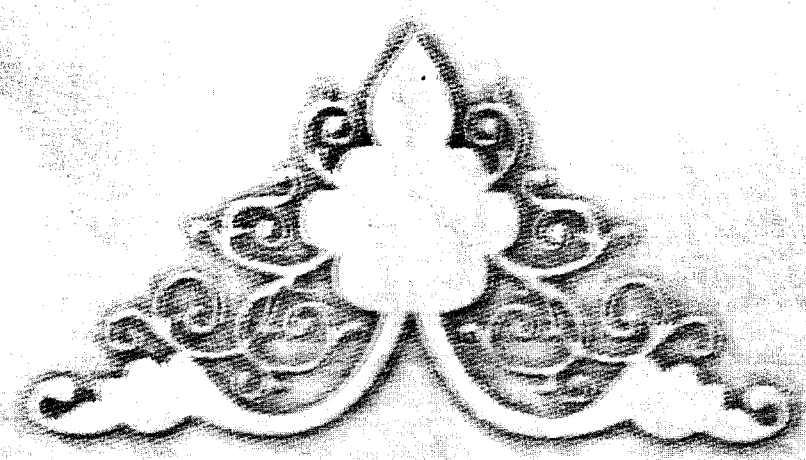

الأبحاث والدراسات

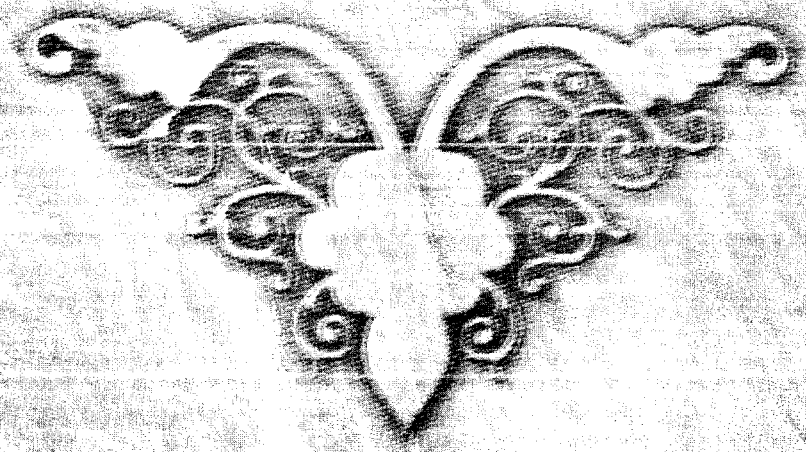

wadod.org

الألسنية المعاصرة والعربية

الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدى

الألسنية والبحث اللغوي العربي:

برزت في القرن العشرين طلائع البحث اللغوي الأوربي، فغزت السوق الثقافية والمعرفية في الوطن العربي، من طريق الترجمات، وتأثير الباحثين العرب ممن درسوا في فرنسا وإنكلترا وألمانيا وسائر البلدان الأوربية الأخرى، وطفح على السطح ما عرف باللسانيات ـ نسبة إلى اللسان ـ أو الألسنة ـ نسبة إلى: الألسن ـ أو اللسنية ـ نسبة إلى اللسن[1] وكلها تعني شيئاً واحداً، وهو البحث في اللغة، من أجلها ولذاتها، كما ورد على لسان سوسير، (٣١٩١٣)[2] في محاضراته.

ولم تكن هذه الألسنية بدعاً ليس له سابق، بل أن ما جاءت به من مبادئ وقيم بحثية في اللغة، كدراسة اللغة ـ منطوقة ـ في زمن التكلم بها من أفواه أهلها، ووصفها وصفاً مجرداً من العلل والتأثيرات الخارجية التي لا علاقة لها باللغة، وعلى المستويات المعروفة في بنيتها ونظامها، وكالصوت والدلالة، والتركيب ـ التنظيم ـ والصيغ، والأساليب، وما يمت إلى بنائها ومكوناتها بصلة جذرية.

لقد سبقت إلى هذا النهج في دراسة اللغة أمم، وكان للعرب في هذا المضمار يد طولى في وضع أسس البحث العلمي اللغوي، حين استقرؤوا نصوص لغتهم واستنبطوا قواعدهم، ووضعوا أصواتهم فيها، فكان من نتائج تلك الجهود وجود النحو العربي، وقواعد اللسان، والأساليب البيانية، والصور البلاغية،

---

(١) ينظر: مادة (لسن) في اللسان، والتاج وغيرهما.

(٢) محاضرات في علم اللغة العام: فرينان وسوسير: بغداد وزارة الإعلام ـ العراقية ـ .

wadod.org

وأساسيات فصاحة التراكيب، والألفاظ، وتنقية المفردات العربية مما داخلها من الأعجمي والغريب، وكان ميدانهم الذي صالوا به وجالوا هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والتراث الأدبي والاجتماعي لأئمة العرب قبل مجيء الإسلام، وفي عهد الرسالة حتى أواخر العصر الأموي، فتركوا المدينة، ولازموا العرب في بواديهم، يسمعون ما يتكلم به العربي، ويترصدون مخارج الأصوات من فيه، ويصفون كيفية نطقه، فيسجلون ذلك كله في رسائل وكتب، وكان من نتائج ذلك كله جملة من الدراسات والبحوث على الشكل الآتي:

١ـ البحث في التراكيب والصيغ والأبنية، والأساليب اللغوية الصحيحة، وظهر ذلك فيما توارثه الأجيال من كتب النحو والصرف والبلاغة، وقد قدمت هذه المؤلفات والمصنفات، وبعضها رسائل صغيرة زاداً ثراً من علم اللغة وفقهها وقواعدها، من مثل كتاب(سيبويه ١٨٠هـ) وكتب عيسى بن عمر(١٤١هـ) التي قيل عنها: إنها بلغت اثنين وسبعين كتاباً في النحو[١]. ولم يبق منها سوى كتابين، هما(الجامع) و(الإكمال) اللذان أطلع عليهما المبّرد: (٢٨٥ هـ)[٢] وقرأ فيهما، فوجدهما على غاية من الكمال والجودة، ويقال: إن الخليل بن أحمد: (١٧٠هـ) قد قال فيهما: [من الرمل]

ذهب النحو جميعاً كله ... غير ما ألف عيسى بن عمر

ذاك (إكمال) وهذا (جامع) ... فهما للناس شمس وقمر

ثم تلت هذه الكتب جملة كبيرة من الدراسات النحوية، والصرفية للفراء: (٢٠٧ هـ)، والجرمي: (٢٢٩ هـ)، والمازني: (٢٤٨ هـ) والمبرد، وثعلب: (٢٩١هـ)، وابن السراج: (٣١٦ هـ)، وابن الأنباري: (٣٢٨ هـ)، وابن دريد: (٣٢١ هـ)، والزجاجي: (٣٤٠ هـ)، وأبي علي الفارسي: (٣٧٧ هـ)، وابن جني: (٣٩٢ هـ)، وابن فارس: (٢٩٥ هـ) وغيرهم، حتى عهود الحضارة الإسلامية المتأخرة، التي شهدت الآلاف المؤلفة، من المصنفات والرسائل في هذا الضرب من التأليف.

---

(١) أنظر: مشكلات في التأليف اللغوي: د. رشيد العبيدي.

(٢) أنظر: المشكلات: ٣٥ـ ٣٦، وأنظر: الفهرست: ٧٦.

wadod.org

وكانت الرسائل في ظواهر اللغة المختلفة، وفي جمع النصوص اللغوية، في مختلف جوانب الحياة، تمثل صورة صادقة، عن اهتمام العربي بلغة الجزيرة، ولا سيما عند العرب الفصحاء الذين كانوا في الوسط، بعيدين عن التأثر والتأثير الخارجي الذي وجدنا آثاره عند أدباء الشمال والجنوب من شعراء الجزيرة، كالأعشى وأمية بن أبي الصلت وغيرهما[١].

كانت البداية الأولى في القرن الأول الهجري، قد شهدت البحث، الألسني الوصفي المنقطع النظير في المنهج والطريقة، للوصول إلى حقائق العربية، وإدراك أسسها وتراكيبها بالملاحظة والوصف[٢]، وأبرز ما هي عليه من النظام والبناء وخصائصها، حتى انتهت إلى وضع المؤلفات والكتب.

٢ـ الجمع والتصنيف لمفردات اللغة، ووصفها في مصنفات متنوعة المناهج والطرائق، كوّنت فيما بعد مدارس معجمية، على مر العصور الحضارية الإسلامية، بين أن تكون مصممة على (الألفباء) وعلى وفق اجتهادات منهجية دقيقة، وعلى الموضوعات والمعاني والحقول الدلالية المختلفة، وعلى مخارج الأصوات اللغوية، وقد تطورت إلى مناهج متعددة لست بحاجة إلى سردها، ولكن يمكن الإشارة إلى ما فعله ابن دريد: (٣٢١ هـ) في (الجمهرة) حين ترك طريقة التركيب على المخارج ورجع إلى (الألفباء) مستفيداً من المدرسة الخليلية في تقسيم المادة، وتقليبها، ووضعها في الثنائي والثلاثي، وما فوقه، ثم الإشارة إلى ما فعله ابن فارس في (المقاييس والمجمل) حين أخذ بطريقة الألفباء، ولكنه انفرد بتنظيم المواد، آخذاً بالحرف وما يليه في الترتيب حتى (الياء) ثم البدء بالهمزة فالباء فالتاء.. إلى أن يصل إلى الحرف الذي بدأ به المادة، فـ(درس) مثلاً نجدها في حرف الدال فالراء فالسين، ثم ما يلي السين: درش: درص: درض... دري، ثم يعود إلى الهمزة: درأ: درب...، وهذه طريقة فذة لم يتابعه فيها أحد ممن جاء بعده، وبقيت إلى هذا اليوم معروفة باسمه، ولم يكن مسبوقاً بها، ولم يتابعه من جاء بعده، فيها.

---

(١) أبحاث ونصوص: ٢٤٧.

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الجانب من البحث، ثلاثة مبادئ ألسنية وفي البحث اللغوي العربي، وألقي في ندوة المجمع العلمي العراقي/محاضرات الموسم العراقي: ١٩٩٥-١٩٩٦. في: ١٩٩٥/١١/٧.

wadod.org

ويقال مثل ذلك في طريقة التنظيم على الموضوعات، كما هي الحال عند أبي عبيد: (٢٢٤ هـ) في (الغريب المصنف) وتابعه فيها الثعالبي: (٤٢٨هـ) في كتابه الوجيز: «فقه اللغة» ثم ابن سيده (٤٥٨ هـ) في كتابه: «المخصص».

وأهم مدرسة في تاريخ المعجم العربي بعد العين، هي المدرسة التي قامت على الألف باء، ولكنها استحدثت طريقة الباب والفصل، وظهرت بشكل ناضج متكامل عند الجوهري: (٣٩٨ هـ) وتابعه فيها جملة من المعجميين، كابن منظور (٧١١ هـ) في اللسان، والفيروز(٨١٧ هـ) في (القاموس المحيط) والزبيدي: (١٢٠٥ هـ) في «التاج» وكانت محاولة الزمخشري: (٥٣٨ هـ) في أساس البلاغة في الترتيب على (الألفباء) الدقيقة جريئة، وقيّمة في تاريخ المعجم اللغوي العربي، إذا التزم بتنظيم المادة على النظر إلى أولها، ثم ما يليه في الترتيب من الهمزة حتى الياء، ثم ما يليه في الترتيب من الهمزة حتى الياء، ثم ما يليه في الترتيب من الهمزة حتى الياء، وهي طريقة المحدثين ـ اليوم ـ وإنما استوحوها من عمله الجبار ذلك، ولم يستطيعوا الخروج عنه. (أبا: أبت أبث، أبجـ أبح... أتا: أتب، أتت اتث... أثا أثب، أثت، أثث، أثج....) حتى إذا انتهى من الهمزة التي في صدر المادة تناول الباء وسار على النهج نفسه[1].

هذا فضلاً عن المعجمات الخاصة التي تناولت: الدخيل والمعرب، والمصطلحات العلمية والفكرية، وألفاظ العلوم الشرعية الأخرى كالفقه وأصوله وأصول الكلام والمنطق، وفي ذلك كتب كثيرة في تاريخ البحث اللغوي العربي، ومن ذلك الرسائل اللغوية، (كأسماء الدواهي والحيوان) لمحمد بن الحسن ين رمضان النحوي[2]، و(أسماء السحاب والرياح والأمطار) للزيادي: (٢٤٩ هـ)، و(ما اختلفت أسماؤه من كلام العرب)[3]، للرياشي: (٢٥٧ هـ)، و(مفردات الطب للراغب الأصفهاني)، و(التعريفات) للجرجاني، و(شفاء الغليل للخفاجي) وغيرها مما تشمل صورة حية عن التنوع الحضاري والمعرفي للأمة.

٣ـ الرصد اللغوي وتقويم اللسان: وهي حركة بحثية لغوية، تهدف إلى مراقبة اللسان العربي، وعرض الخطأ اللغوي على الضابط والقاعدة، لتكون

---

(٢) أنظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية موضوع (المعجمية العربية) ص٣٣٩ـ ٣٤٠.

(٢) معجم الأدباء: ٤٩٥/٦.

(٣) نفسه: ٢٨٥/٤.

wadod.org

فيهما حصانة من الوقوع في اللحن، وصيانة لأساليب العربية وحفاظاً على سلامتها.

وقد كان المسلمون منذ عهد الرسالة حريصين على بقاء اللسان العربي سليماً نقياً من الزلل والخطأ، واللحن، ولذلك أثر عن رسول الأمة (صلى الله عليه وآله وسلم) توجيه وتوعية لأفراد وزلّوا في كلامهم أمامه فقال: «أرشدوا أخاكم، فقد ضل»[١]، وسارت الأمة من بعده على منهجه في الحفاظ على اللسان العربي، وانتحاء سلامته، وتنبيه الناطقين على ما يقع في ألسنتهم من خطأ أو زلل أو لحن قد يؤدي إلى الكفر والضلالة، كما حصل لذلك الذي قرأ قوله ـ تعالى ـ «أن الله برئ المشركين ورسوله» ـ بكسر: «رسوله» ـ ظناً منه أنها معطوفة على (المشركين) في حين هي معطوفة على لفظ الجلالة (الله) أو على موضع (أن الله) وهو الابتداء، فتكون اللفظة على ذلك بقرائتين: (ورسوله) ـ بالنصب ـ، أو (ورسوله) ـ بالرفع ـ وقد يكون لحنه جهلاً أو قلة اكتراث.

ومن هنا كانت أقوال الصحابة، وتابعيهم في هذا المضمار كثيرةً، نقلتها كتب اللغة والأدب تشير إلى حرصهم المتواصل على حفظ اللسان، يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: تعلموا الفرائض والسنن واللحن، كما تعلّمون القرآن، وأراد باللحن: اللغة[٢].

وتواصلت جهود علماء العربية في رصد الأغلاط وإحصائها، وتدوينها في كتب ومؤلفات، كان الغرض منها التنبيه على اللحن في لسان الخواص والعوام فنقلوا عن الكسائي: (١٨٩ هـ) كتاباً باسم: «لحن العامة» ولأبي عبيدة (٢١٣ هـ) مثله، ورووا أن للسّجستاني: (٢٥٧ هـ)، والمازني: (٢٤٨ هـ)، والزبادي: (٢٣٦ هـ)، والزبيدي: (٣٧٩ هـ)، والحريري: (٥١٦ هـ)، وغيرهم كتباً في المستويات العلمية والثقافية المختلفة، وفي طبقات الناس من الخواص والعوام، وصل إلينا منها: كتاب(ما تلحن فيه العامة للزبيدي)[٣]، و(درة الغواص في أوهام

---

(١) الخصائص: ٨/٢، وانظر معجم الأدباء: ٨٢/١.

(٢) الأمالي: ٥/١: (ط: دار الكتب).

(٣) مطبوع متداول.

wadod.org

الخواص) للحريري[١]، و(التنبيه على غلط الجاهل والنبيه): لابن كمال باشا: (٩٤١ هـ)[٢].

لقد كان هذا الفن من التأليف يمثل السياج الذي وضع، ليحد اللسان العربي من الوقوع في الخطأ، وليبين له الطريق الذي ينبغي له أن يسلكه في التعبير السليم، وهذا هو الذي أفصحت عنه عبارة: قل لا تقل التي وضعها الدكتور مصطفى جواد عنواناً لكتابه، في القرن العشرين.

٤ـ كتب الدراسات المتنوعة، وهي دراسات تناولت الحرف العربي وخصائصه، ومخارجه، والتبدلات الصوتية، وتأثير الأصوات بعضها في بعض، وصلة الصوت بالمعنى، ودلالة المفردات وتغير الدلالات، واللهجات العربية، ومظاهر هذه اللهجات وأسباب تكونها، والتمييز بين رديئها وفصيحها، كما تناولت آداب اللغة من نثر وشعر، وما حصل فيها من تطور وتغيير في حقب ما قبل الإسلام وبعده، حتى أواخر العصر الأموي ومطلع العصر العباسي، حيث ظهر التوليد في اللغة وآدابها، ودخول الغريب فيها، وتأثير الأعجمية في اللسان.. وكل هذه الجوانب تمثل تاريخاً حافلاً بالجهود العلمية الجبارة لعلماء العربية ومفكريها وأدبائها، بحيث وصل إلينا منها كتب ومصنفات، لمختلف العصور الإسلامية، تنم عن تسجيل دقيق، ووصف لا مثيل له في تاريخ أية أمة من أمم الأرض، مما خلف لنا آثاراً جليلة من المخطوطات التي لم يطبع منها إلا القليل، ولا تزال (الملايين) منها تنتظر البعث والنشر، لتكشف لنا عما أودعه أولئك الرجال من جهود عقلية وفكرية وعلمية بطون هذه الكتب، ومن المصنفات التي وصلت إلينا على هذا النمط من الجهود، كتاب (الخصائص) لابن جني، وكتاب (الصاحبي) لابن فارس، وكتاب (سر الصناعة) لابن جني أيضاً، وكتاب (دلائل الإعجاز) للجرجاني (٤٧٠ هـ)، وكتاب (الإبدال) لأبي الطيب اللغوي (٣٥١ هـ)، و(القلب والإبدال) لابن السكيت: (٢٤٤ هـ)، وكتاب (الأضداد) لأبي بكر بن الأنباري: (٣٠٢٨هـ)، و(الإتباع والمزاوجة) لابن فارس، و(أدب الكاتب) لابن قتيبة: (٢٧٦ هـ) و(الاشتقاق) لابن دريد، و(الحروف): المنسوب للخليل،

(١) مطبوع متداول.

(٢) مطبوع أكثر من طبعة، ومنها طبعة بتحقيقنا نشرتها مجلة المورد: عدد:١٤ مجلد٩/ ١٩٨٠.

wadod.org

و(الحروف) لأحمد بن محمد أبي الفضائل الرازي: (٦٣١ هـ)[١]، فضلاً عن دواوين الشعر وشروحها، وكتب تاريخ الأدب العربي الموسوعية في معارضها وثقافاتها. من خلال هذا العرض السريع لجهود علماء العربية المسلمين يظهر لنا أن البحث اللغوي العربي، قد كان منذ الأعوام الأولى للرسالة الإسلامية يتجه اتجاهاً بحثياً ألسنياً سليماً يعتمد في الأصل على:

(أ) ـ الملاحظة والرصد للغة المنطوقة التي سمعها الباحثون العرب من أفواه أهل اللغة، وهم العرب الفصحاء في بواديهم وحواضرهم، كتميم والحجاز وما جاورهما من العرب الموثوق بكلامهم، كقيس وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، يقول ابن فارس: (عنهم نقلت العربية، وبهم اقتدي، وعليهم اتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف)[٢] فضلاً عن أن القرشيين كانوا المثال في الفصاحة، لأن قريشاً كانت: (تتخير من كلام الوفود أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فكانوا بذلك أفصح العرب)[٣].

وكانت هذه الملاحظة للغة المنطوقة الفصيحة، تمثل أساساً متيناً من أسس البحث الألسني الذي لم يبنه الباحث العربي على مقدمات ومسبقات من القيم البحثية والأحكام الموروثة، بل كان ذلك منه منهجاً فرضته عليه طبيعة العناية بلغته والاهتمام بها، فعمد إلى أهلها، ليسمعها منهم، ويصفها كما سمعها، من غير أن يتدخل في حكم من أحكامها، أو ظاهرة من ظواهرها التي سمعها بأذنيه، ودونها كما وقعت له عند أهلها.

وإنما كانت هذه العناية منه، لأنها كانت من الدين الجديد؛ ولأنها لغة الكتاب المنزل بها، تشريعاً وأحكاماً للعربي، ولمن سيكون أخاه في الدين مستقبلاً من البشر. فكان الحرص ـ إذن ـ على وضع قواعد اللسان بالاكتشاف ووصف الكلام وعلى المحافظة على النص الذي بين أيديهم، ـ وهو القرآن الكريم ـ وعضده بحديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتراث الشعري العربي في عصر ما

---

(١) نشرته محققاً في جملة معهد المخطوطات بالقاهرة عام:(١٩٧٤م).

(٢) الصاحبي: ٢٣.

(٣) الاقتراح: للسيوطي: ٦-٧.

wadod.org

قبل الإسلام، وبعده إلى عصر التوليد، وبما سمعوه من الأمثال والأسجاع العربية الفصيحة، ومحاورات الأعراب في بواديهم[١].

(ب) ـ ميز الباحث العربي اللغة المشتركة التي لها مستوى صوابي عال، يمثل قمة الفصاحة العربية. من لهجات أطلق عليها اسم «لهجات مذمومة» كالطمطمانية، والكشكشة، والعجرفية، والفحفحة، والشنشنة، والعجعجة، والعنعنة، والتلتلة، وغيرها مما لا نريد إحصاءها في هذا الموضع، وإنما كان هذا التمييز مضطراً إليه، لا بمحض اختياره، لأن العرب أنفسهم كانوا أعرف بمواطن الفصاحة، وأكثر إدراكاً للسلامة اللغوية في قبائلهم وأفخاذهم وبطونهم، وهم الذين حدّدوا للباحث اللغوي العربي مواطن الأخذ، وألزموه أن يستمع إلى لغة عرب معروفين بسلامة السليقة العربية، وفصاحة اللسان، ذلك أن الباحث العربي كان يجهل ـ تماماً ـ مَن من العرب الفصيح، ومن منهم الأفصح، ومن منهم الرديء، فما كان بمقدوره ـ يومئذ ـ أن يميز هذا من ذاك، إلا على وفق هدي واسترشاد ممن هو أعرف بالأمر، ولذا كان سؤال معاوية بن أبي سفيان، وهو العربي الفصيح، موجّها إلى أعرابي دخل عليه: «من أفصح الناس»؟ وهو سؤال ينطوي تحته معنى كبير في سبيل البحث العلمي اللغوي، الذي بدأت بواكيره في تلك الأثناء على أيدي حملة القرآن الكريم وعلمائه الأوائل، فما كان من الإعرابي إلا أن حدد له المواطن الفصيحة من قبائل العرب، ونبه على الرديء منها؛ ليكون هذا التحديد إيذانا ببدء عملية فرز صحيح للغة، وبناء منهج بحثي دقيق كفيل بالكشف عن القواعد والأحكام الصحيحة في تاريخ البحث اللغوي العربي، قال الأعرابي: «أفصح العرب، قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن عنعنة تميم، وتياسروا في كسكسة بكر وليس لهم عجعجة قضاعة، ولا طمطمانية حمير! قال: من هم؟ قال: قريش»[٢].

وجاء من بعد البحث الوصفي في العربية وتصنيف قواعدها المكتشفة، أصول تلك اللغة وأحكامها، على شكل مبادئ توصل إليها الأولون، واتخذ منها

---

(١) أنظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية: ص١٦٤-١٦٥ وهذا الذي فعله الباحث اللغوي العربي هو عين ما دعت إليه الألسنية المعاصرة، كما ترى في منهج سوسير في كتابه: «محاضرات في علم اللغة العام» ط بغداد.

(٢) البيان والتبيين: ٣/٢١٢ ـ ٢١٣.

wadod.org

المتأخرون مستنداً يرجعون إليه في حالة الوقوع في الخطأ، أو تعليم من يريد علم اللغة، ليستعين بها على فهم كتاب الله، والصلة بتراثها وآدابها.

إن الاتجاه الذي ساد في أوربا في مطلع القرن العشرين بعد محاضرات سوسير (١٢١٣م)[١] ـ التي طبعت عام: (١٩١٦م)، في البحث اللغوي، كان كما أشرنا بحثاً ألسنياً وصفياً لا غبار عليه، إذ جعل هدفه هو البحث في اللغة من أجلها ولذاتها، بعيداً عن تأثيرات التطور والتأريخ والمؤثرات الأخرى من اجتماعية أو تربوية أو نفسية، ولذلك وجد المنهج البحثي الألسني من بعده صدى عميقاً في نفوس الباحثين الأوربيين، فاعتنقوه، وكتبوا فيه، ونبهوا على أهميته في ميدان البحث اللغوي من أمثال فوكوه، ولا كان، ولاكروا، وسيكاهي، وشارل، بالي، ولالند، وماروزو، ثم تشومسكي، وجورج مونان، وغيرهم[٢].

غير أن هذا الاتجاه البحثي الألسني في أوربا لم يبق واحداً من بعد سوسير، بل توزع على مذاهب ذهنية مختلفة أشبه بفلسفات فكرية لا يلتقي بعضها مع بعض في المنهج ولا في التفكير[٣]، ولذلك تنصّل بعض البنيويين من كونه بنيوياً، وطوّر آخر منهجه، وجمع آخرين ما طرحه سوسير وما رآه عند الآخرين، فخرج بمنهج توفيقي، وهكذا كان الاختلاف واضحاً عند الباحثين الأوربيين في الدراسة اللغوية.

ويرجع ذلك ـ كما رأى ـ لظروف خاصة باللغات الأوربية وتطورها خلال حقب التاريخ المتعاقبة على شعوب القارة الأوربية، فلقد كانت اللاتينية لغة ذات لهجات يتكلم بها شعوب أوربا الجنوبية والغربية، كالفرنسيين والإيطاليين والبرتغاليين والإسبان وشعب رومانيا، ولكنها أصبحت فيما بعد لغات لها كياناتها المستقلة، وشخصياتها المتميزة، وخصائصها الإقليمية والمحلية، فليست الفرنسية، كالبرتغالية، ولا الإسبانية كالإيطالية، مما فرض على الباحثين اللغويين النظر في وضع برامج بحثية لغوية لوصف هذه اللغات، والكشف عن خصائصها وسماتها، واستنباط شعبية ضوابطها وقواعدها، بل لقد كانت هذه اللغات تمثل لهجات شعبية ضيقة تنحو نحو التطور والتغير، مرتبطة بظروف كل بلد من هذه

---

(١) البنيوية في اللسانيات: د. الحناش: ح/١: ص:٤٠.

(٢) أنظر: كتابنا: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية: ص٤ ـ ٥.

(٣) أنظر مشكلة البنية: د. زكريا إبراهيم: الصفحات الأولى من الكتاب.

wadod.org

البلدان، وكان الباحث الأوربي في القرن الرابع عشر الميلادي وقبله لا يجرؤ على الخوض في دراسة اللهجات الشعبية، لأن ذلك كان يعد كفراً ـ كما يعد جورج مونان ـ إذ يقول[١]: لقد وقع التجرؤ ـ في القرن الرابع عشر ـ على كتابة نحو اللغات العامية، وهو أمر يكاد يكون كفراً، إذا أن هذا الشرف العظيم كان منحصراً في اللاتينية، بفضل تقديس دام دهراً طويلاً. فظروف البحث اللغوي في أوربا كانت تحثّ اللغويين حثاً على العناية باللغة، في أي عصر، و أوان، ما دامت اللغات الأوربية غير مستقرة على حال معينة من الثبات والرسوخ على أصولها وقواعدها، وهذا الذي تميزت به اللغات الأوربية من التطور والتغير، جعلها تختلف عن ظروف العربية التي استمدت ديمومتها وقوتها من التراث الأدبي الضخم، الذي وصل إلينا عن طريق الرواية، منذ عصر ما قبل الإسلام، ثم من القرآن الكريم الذي نزل بأفصح اللهجات العربية، وأكثرها إشراقاً وبياناً، ثم من الحديث النبوي الشريف الذي حرص الرواة الأثبات المتقنون على روايته فصيحاً سالماً من التغيير والتبديل واللحن والخطأ، ثم من التراث الشعري والنثري بعد الإسلام حتى دخول عصر التوليد والاستحداث، ولا سيما زمن العباسيين الذي اختلط فيه المجتمع العربي بالمجتمعات غير العربية الداخلة في الإسلام، فظهر الشعر المولد على لسان مسلم بن الوليد وأبي نواس، والحسين بن الضحاك، وعدّوا ساقة الشعراء ابن هرمة ومروان بن أبي حفصة وغيرهما[٢] ممن اختلف النحاة في قضية الاستشهاد بشعرهم.

إن الذي حصل للغات الأوربية من تطور وتفسير لم يحصل للعربية منذ أن نقلها المعنيون بها حتى يومنا هذا، فما زال الشاعر المعاصر ينظم بلغة امرئ القيس، والنابغة، وحسان، والخنساء، وجرير، والفرزدق، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، والمعرّي، والأبيوردي، والصفي الحلي، وعبد الباقي العمري، والأخرس، وكاظم الأزري، والحبوبي، وما تزال تجد تراكيب الرصافي وشوقي، وحافظ، والجواهري، وغيرهم هي تراكيب أولئك الشعراء المتقدمين، وينسحب هذا على النثر بأنواعه، في حين لا تجد صلة بين لغة شكسبير في ما تقرأ من كتاباته باللغة الإنكليزية في عصره في: ماكبث و الملك لير و كليوباترة

(١) مفاتيح الألسنية: ص٣١.

(٢) ينظر خزانة الأدب: البغدادي: ١/ص٤٠٣.

wadod.org

و تاجر البندقية وغيرها، وما ترجمت إليه هذه المسرحيات باللغة المعاصرة ـ الإنكليزية ـ لأن القارئ المعاصر، يعرف أن ثمة صعوبة في فهم لغة شكسبير القديمة، فهو يجهل صياغاتها وتراكيبها، ودلالة مفرداتها، وإصاتة بعض رموزها الصوتية التي أصابها التغيّر والتحوّل.

ومن هنا توجّب على الإنكليز ترجمة تلك المسرحيات إلى اللغة المعاصرة، ليسروا فهم تلك النصوص، ومعرفة مضامينها. ولم يكن هذا الشأن قد حصل مثله في العربية، فلم نحتج لترجمة كتب الجاحظ: (٢٥٥ هـ) ولا ابن المقفع، ولا عبد الحميد الكاتب، ولا كتب ابن قتيبة، ولا وجدنا عسراً في فهم أدب (بديع الزمان) أو (الحريري)، أو (أبي العلاء المعري) النثري، أو غيرهم ممن وصلت إلينا كتاباتهم ومؤلفاتهم.

لذلك لم يحتج العربي المعاصر إلى إعادة نظر لدراسة اللغة العربية المعاصرة، ووضع قواعد وضوابط لها، في حين احتاجت اللغات الأوربية إلى مثل ذلك النمط من الدراسة، لتقرر من جديد وضع قواعد وأحكام ومعايير جديدة تضبط بها صور التعبير، وتكشف عن الخصائص الجديدة للغة المعاصرة.

وهذا برأيي هو الذي دفع الكثيرين من الأوربيين إلى محاولة استحداث مناهج بحثية جديدة يستطيعون بها الكشف عمّا تتميز به اللغات الأوربية المعاصرة من سمات وخصائص.

ولو وضعنا هذه الحالة أمام العربية وما استقرت عليه من واقع في الاستعمال والتداول بين أبنائها، وما آلت إليه من ضوابط ومعايير من جهة، وحالة اللغات الأوربية وما طرأ عليها من تغيرات سريعة، وانتقال من حال إلى حال، ومن كونها مظاهر لهجية إلى لغات ذوات كيانات مستقلة، وميزات وخصائص شخصية تجعل لكل منها قواعدها وأحكامها ومعاييرها الخاصة في الأصوات والدلالات والأبنية والصيغ والتراكيب، يجد الباحث الفرق شاسعاً والهوة سحيقة، ثم لا يجد ترابطاً يستطيع من خلاله أن يجعل بين العربية وسائر اللغات العالمية جسراً يعبر به إلى شيء تلتقي فيه معهن.

wadod.org

ومن هنا أجد من العسر والتعذر أن أطبق منهجاً بحثياً وضع مناسباً للغة ـ أو لغات ذوات سمات خاصة ـ على لغة امتلكت في ذواتها قوة خلودها وبقائها راسخة على خصائصها.

ولعلني لا أبالغ إذا قلت: أن ثمة غلواً محموماً ينهد به نفر من المغرمين بالبحث الألسني الأوربي في هذا القرن، يهدف إلى الانصراف عن البحث العربي الأصيل إلى الألسنية الحديثة، ولا سيما المعنيين بالعربية، ممن تعلموا شيئاً عند الغربيين، أو اطلعوا على ما جاءت به الترجمات من كتب البحث اللساني في فرنسا وغيرها من أقطار أوربا بعد سوسير(١٩١٣م) وهو بحث مقحم على العربية، بعيد عن أنفاسها وخصائصها، وإدخال أهلها في ميدان غير مناسب لها، ولا متلائم مع طبيعتها، في الوقت الذي كانت الدراسات العربية الأصيلة قد آتت أكلها، وخدمت الحرف العربي خدمة لا مثيل لها، وأبرزت خصائص هذه اللغة إبرازاً متكاملاً، لا يحتاج معه أبناؤها إلى مزيد من المداخلات والتعقيدات التي يتسم بها البحث الأوربي الحديث.

فليس غائباً عن أذهان الباحثين الألسنيين اليوم التشاجر والخلاف بين المذاهب الألسنة المعاصرة، وما تستخدمه من مصطلحات وما تختلقه من تفسيرات للظواهر اللغوية المختلفة، ومجالاتها المتعددة في الأصوات والدلالات والأساليب، والتنظيم، والصيغ والمفردات. يصل في الكثير من الأحيان إلى حد التناقض[١]؛ ليس في الأفكار بل في المنهج أيضاً، مما يضع الباحث المتقصي أمام حشد كبير من قبل المذاهب والآراء، فضلاً عن المصطلحات والتعبيرات المبهمة الغامضة التي تحتاج إلى تبيين وإيضاح. وتشير عبارة جورج مونان عن المذاهب المختلفة في تعريف المدلول إلى مثل ما أزعمه ـ هنا ـ من ذلك التناقض والاختلاف[٢].

---

(١) كتبت عن التناقضات بين المذاهب الألسنية موضوعاً في مجلة دراسات للأجيال عام ١٩٨٠ عنوانه: (التناقض بين المذاهب الألسنية).

(٢) مفاتيح الألسنية: ص١٢٠.

wadod.org

و ـ هنا ـ نجد سوسير، وهو ـ كما يسمونه ـ أبو الألسنية في أوربا، يذهب إلى أن اللغة: هي شيء مكتسب تقليدي»[١] مميزاً لها من اللسان الذي يعتمد على الملكة الطبيعية»[٢] في كتابه: «محاضرات في علم اللغة العام»[٣].

وهي ـ عنده ـ أيضاً: «نظام من الإشارات التي تعبّر عن الأفكار»[٤].

ونقل عنه جان بياجييه في كتابه: «البنيوية» تعريفاً آخر فقال: إنه عرفها: «بنسق عضوي منظم من العلامات»[٥] وهذه التعريفات جميعها، تبرز لنا أن اللغة عند رائد الألسنية الأول فردينان دي سوسير، عبارة عن نظام جامد، لا تعدو أن تكون قوالب جاهزة، منقولة من متقدمين إلى متأخرين، يحكي فيها المتأخر ما درج عليه المتقدم، فهي شيء مكتسب تقليدي[٦] ليس غير، وطبيعتها أصوات ـ علامات ـ منظمة تعبر عن أفكار.

وكونها علامات تسير على وفق نظام مكتسب تقليدي لا يعطي للغة مرونة تعبيرية، وبالتالي لن يستطيع المرء أن يفترض أن ثمة اختلافاً بين أسلوب وأسلوب أو نمط تعبيري وآخر، ما دامت اللغة نسقاً من العلامات ونظاماً تقليدياً يكتسبه الإنسان اكتساباً عمن تقدمه من العشيرة اللغوية الواحدة، أو من الأبوين، أو من الأجيال السابقة، وهذا أمر يرفضه المنطق العلمي، ولذا كان الباحث اللغوي ـ حين يعمد إلى دراسة لغة أديب أو عالم أو مفكر[٧] ـ يجعل نظره منصباً على تمييز الأساليب، واختيار المفردات، ليستطيع بذلك معرفة القدرات التي يمتلكها كل واحد منهم، ولذا نجد الآخرين ممن كانوا بنيويين أيضاً ـ قد رفضوا كونها شيئاً

---

(١) محاضرات: ص٢٨.

(٢) نفسه: ٢٨-٢٩.

(٣) طبع عام ١٩١٦، وترجم إلى أكثر من لغة، ثم ترجمه إلى العربية في العراق يوئيل يوسف، وطبع في مطابع وزارة الإعلام بعنوان: «محاضرات في علم العام».

(٤) المحاضرات: ص٣٤.

(٥) البنيوية: ٤٧.

(٦) كما هي عبارته في المحاضرات: ص٢٨.

(٧) فلو كانت اللغة قوالب ونظاماً جامداً ينتقل باكتساب وتقليد دون إبداع أو إظهار قدرات لما استطعنا التمييز بين طه حسين والعقاد أو البحتري وأبي تمام ـ مثلاً ـ في أساليبهم وأشكال التعبير، وعرض الأفكار ـ عند كل واحد منهم.

wadod.org

مكتسباً تقليدياً، وخرجوا عن هذا المفهوم إلى كونها تحمل في ذاتها عنصر الإبداع والتصرف، وأن المقتدرين عليها، إذا ما اكتسبوا بنيتها التحتية، انتخبوا الجمل والعبارات ما لا نهاية له[١]، وهذا اتجاه مخالف لما درج عليه سوسير في حقيقة اللغة، وكان من أثر النظرة السوسيرية عند الباحثين العرب أن صدرت بعض أحكامهم على اللغة، بأنها(مجموعة قواعد صامتة)[٢] فجعل اللغة هيكلاً جامداً لا روح فيه ولا حياة، ولو أنصف الباحثون المعاصرون في نظرهم إلى اللغة، وما عرفه العلماء العرب عنها لكانوا أهملوا كل ما يرد من أقوال فيها، مكتفين بمذهب أبي الفتح بن جني: (٣٩٢ هـ) حين قال عنها: «اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[٣]. فجاء بالشمول والمناعة فيما يخص اللغة من حيث طبيعتها ـ فهي أصوات ـ ومن حيث وظيفتها ـ فهي تعبر ـ وبالتعبير يتواصل أبناؤها ويتفاهمون بها، وينقلون أفكارهم إلى المستمع المتلقي، رابطاً بين نفسية المنتج للكلام ونفسية المتلقي، ومن حيث كونها وسيلة إفصاح عن الأغراض، وهي متعددة، كالتنبيه، والبحث العلمي، والغناء، والشعر، والحوارات المختلفة والمحاججات، والترجمة.. الخ.

ثم قال: «كل قوم» فرمز إلى اختلاف اللغات مع اختلاف الأجناس البشرية، قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألوانكم وألسنتكم ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين﴾ [النحل: ١٠٣]. فالمتحدث بأية لغة لكي يعبر عن المعاني والأفكار والأغراض، والمستمع يتلقى الكلام لكي يكشف عن مراد المتكلم، وما ينقل إليه من أفكار ومعان[٤]، فهذا التعريف الذي دفعه إلينا ابن جني منذ ما يزيد على عشرة قرون من الزمن كفانا أموراً جمة منها:

أولها: تمام التعريف باللغة وخصائصها وسماتها.

---

(١) وهذا مذهب تشومسكي في (البنى التركيبية): ١٩٥٧م، و(جوانب من نظرية النحو) ص٦ و٣١.

(٢) وهذا ما عرف به تمام حسان اللغة في كتابه: (اللغة بين المعيارية والوصفية) ص١١٤.

(٣) الخصائص: ٢-٣٤.

(٤) انظر: النقد الأدبي الحديث، ومحمد غنيمي هلال: ط٣. دار النهضة: ص٣٩.

wadod.org

ثانيها: تجنب الخوض في الاختلافات الكثيرة التي تصل إلى حد التناقض.

ثالثها: وضوح الهدف من التعريف وصحة التعبير عن اللغة، في حين نجد أن جل التعريفات المعاصرة ناقصة، أو مقتصرة على جانب دون آخر، كالاقتصار على طبيعتها وإهمال الوظيفة أو بالعكس.

من هذا الذي تقدم يتبين لنا أن العربية، مع ما وصل إلينا من دراسات في اللسان العربي، وقوامة هذه الدراسات، وإيفائها بما يحتاجه الباحث المعاصر من معرفة، وفهم، وإدراك لما كانت عليه، وما آلت إليه الدراسة اللغوية الحديثة ـ ولا سيما الأوربية ـ ينبغي لها أن تكون بمنأى عن أن يقحمها الباحثون العرب في تلك المآزق والمجاهل التي لا تخرج منها إلا بتناحرات وتناقضات مذهبية، ليست العربية بحاجة إليها، ولا هي بماتة بصلة إليها، فكيان العربية وشخصيتها، وأصولها، وضوابطها، ونصوصها الأصيلة وآثارها الواصلة إلينا، قد اكتسبت درجة الاكتفاء الذاتي، وحملت معها عناصر بقائها وديمومتها واستمرار قوتها، وسر حيويتها وحركتها وإنعاشها، ببقاء كتاب الله العزيز، وبهذا التراث العظيم الواصل إلى أبنائها مدوناً ومحفوظاً ومدروساً، مكوّناً زاداً ثراً ومعيناً لا ينضب، يستمد منه أبناؤها ما هم بحاجة إليه من التغذية والتوعية والتثقيف.

إن وجود ظواهر غريبة في اللسان الشعبي المعاصر لا يعني شيئاً وليس له تأثير في كيان العربية، ووجود لهجات عامة، يتكلم بها أوساط اجتماعية مختلفة هو ناموس طبيعي، وقانون لغوي معروف يصاحب كل لغات العالم، فليست هناك لغة مثالية صرف، ليس معها لهجة أو لهجات تبتعد عنها أو تقترب منها، ففي اللغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية والانجليزية، وغيرها من لهجات شعبية تختلف عن اللغة المثالية ـ لغة الكتابة والعلم والأدب ـ فليس طلب (هكسلي) من الكتاب الإنجليز أن يكتبوا باللغة السليمة لآدابهم وعلومهم، إلا مثال على وجود العامية في اللغة الإنكليزية، وإشارة (جورج مونان) إلى تجرؤ الباحثين الأوربيين على إدخال اللهجات العامية في القرن الرابع عشر الميلادي ـ في أوروبا ـ إلى البحث العلمي اللغوي كان يعد كفراً[1] فيها دلالة على وجود العاميات في اللغات الأوروبية ـ جميعاً ـ واختلاط المجتمع العربي حين خرج من الجزيرة، يحمل الإسلام عقيدة للبشرية، أدى إلى دخول أجناس مختلفة في ظل الدين الجديد

(١) المفاتيح: ٣١.

wadod.org

وإلى كون هذه الأجيال من الناس غير قادرة على التحدث باللغة إلا بتعلمها واكتسابها من أهلها بالاختلاط[١]، لكي تستطيع قراءة القرآن وفهم تشريعاته من الطبيعي أن تكون بعض عوامل هذه التحولات في اللسان العامي، إضافة إلى ما تقدمه أن بعض الشعوب التي نطقت بالعربية مختلفة البنى والاستعدادات، والأجهزة النطقية، كما أن بعضها قد يحدث نتيجة الأخطاء السمعية، أو من تفاعل الأصوات اللغوية وتناوبها، أو من عوامل نفسية وجغرافية واجتماعية تفرض نوعا من التغيرات في بعض أصوات اللغة، يكون اللسان الشعبي مرتعا خصبا لها، تنمو وتستغل فيه فتصبح مقوما في مقومات اللهجة، ويلقى استقرارا في اللسان العامي، ويكون ظاهرة طبيعية، كما لو كانت في أصل اللغة، لانعدام الرقابة، وعوامل الضبط على لسان العامة[٢].

غير أن الذي يمكن أن يلاحظ المرء أن اللسان العربي له القدرة الكاملة على نطق الأصوات الأصيلة والدخيلة، من غير كلفة أو عسر، في حين عسر على غير العربي النطق (بالضاد والظاء والحاء) من أصوات العربية الأصيلة، وهذه الظاهرة المتميزة في الجهاز النطقي العربي واضحة، عرفها الألسنيون العرب، وأشاروا إليها في كتبهم كالجاحظ: (٢٥٥ هـ)، و ابن فارس: (٣٩٥هـ)، وابن حزم الظاهري الأندلسي: (٤٥٦ هـ)، فيقول ابن حزم: إذا أراد الجليقي ـ يعني الغربي ـ نطق العربية أو: إذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء: هاء، فيقول: مهمد، إذا أراد أن يقول محمد[٣].

لذلك بقي أثر اللغات القومية ـ في لسان غير العرب ـ واضحا في نطق بعض أصوات العربية، وسرى ذلك إلى لسان العامة، فكان يمثل جزءا كبيرا من اللهجة العامية في لسان المسلمين عموما، ولا سيما مجتمع بغداد في عصور الحضارة الإسلامية المتقدمة حجكط\ظ-٠، فضلا عن كونها متأصلة في المجتمعات الإسلامية الأخرى في شرق بلاد الإسلام وغربها.

---

(١) أبحاث ونصوص: ص٢٩٩ فما بعد.

(٢) نفسه: ٢٩٩ وانظر أمثلة من التغيرات في الأصوات.

(٣) الأحكام في أصول الأحكام: ١/٣٠.

wadod.org

ومن هنا ظهر ما يعرف في تاريخ الدارسات العربية الألسنية بحركة الرصد اللغوي، وتصحيح اللحن والخطأ، والتنبيه على الانحرافات، والإحالة على الصحيح في اللسان العربي[1].

ويعضد هذه الحركة ويقويها أن الأصول المرجوع إليها في ضبط اللسان كالقرآن الكريم والتراث العلمي والتشريعي والأدبي تمثل الحصن الحصين، الذي يأوي إليه اللسان، ويستمد فيه القوة في مسيرته اللغوية الصحيحة، على الرغم من كثافة التأثيرات الخارجية من الألسنة المختلفة: الفارسية والهندية والتركية والحبشية والرومية وفي عصرنا الحاضر ـ الغربية.

واختلاف البيئات العربية، مع اختلاف التأثيرات وتنوع الاحتكاكات بالشعوب أدى إلى اختلاف اللهجات الشعبية المحلية من عراقية إلى مصرية إلى شامية، إلى لهجات الشمال الإفريقي، ولكن شيئا واحدا لم يختلف بين هذه البيئات، هو الاتفاق على التعبير باللسان العربي المشترك، أعني: العربية السليمة التي ترتفع عن مستوى التبذل العامي، وتلتزم الصيغ السليمة في التعبير، والتنظيم المعهود في البنية النحوية، وتحاشي استعمال المفردات الدخيلة والغريبة والمعربة، والمولدة والمحدثة.

واللهجات المحلية أداة خطيرة يستخدمها الدخلاء، لتمزيق وحدة الأمة، وتفريق كلمتها، وهي التي تمسك بها دعاة التخريب والهدم من المستشرقين والمستغربين، من أمثال: سعيد عقل، ولويس عوض، ويعقوب صنوع، وداوود جلبي، ومتى عفراوي، فضلا عن المستشرقين الذين عاشوا في مصر والعراق، ولبنان وسوريا من أمثال كانتينو وولكوكس، وولمور، ومارجليوت، وكوهين، وغيرهم.

فإن أمثال هؤلاء لم يكتفوا بإثارة الشبهات والمشكلات تجاه العربية ونحوها وصرفها وبلاغتها، وإنما دعوا إلى نبذ أساليبها الفصيحة السليمة، والتزام العامية، وترك الإعراب، وإشاعة الكتابة باللهجات العامية الشعبية، وتغيير الحرف العربي إلى حرف لاتيني، فضلا عن قيامهم بدراسات جديدة تشغل العربي عن دراسته الأصيلة، وحين نضيف إلى هذا كله، موضوع البحث في هذه

---

(١) وهو ما عرف بلحن العوام والخواص. وقد وصلت إلينا جملة من المؤلفات القيمة في ذلك.

wadod.org

العامية، سماع النطق بها، لرصد التغييرات الصوتية والتركيبية، وذلك استجابة لمنهج البحث الألسني الأوربي المعاصر الذي يجعل من أهم مرتكزات البحث الوصفي الألسني كون اللغة منطوقة.

أقول: حين نأخذ بهذا نكون قد انحدرنا إلى ما لا تستحقه العربية الفصيحة من المكان غير اللائق بها، وخرجنا بأحكام وظواهر ليست من خصوصياتها التي تميزت بها عبر حياتها الطويلة الحافلة بمنجزات عظيمة في كل مجالات العلم والأدب والثقافة والفنون، لأن البحث في العاميات يعني البحث في فروع لهجية مختلفة الخصائص، متضادة الأساليب والصيغ، متنوعة المفردات الغريبة والدخيلة، وهي بهذه الصفات لا تمثل لغة واحدة، لأنه يراد لها أن تكون واحدة، تنضوي تحت خيمة اللغة الواحدة، فضلاً عن العقيدة الواحدة الصادرة عن كتاب الله(تعالى) وحديث رسوله الكريم(ص) وتراثها الضخم المتصل.

ومن هنا كانت الدعوة إلى الحفاظ على اللسان العربي الأصيل، والاهتمام بالمنابع الأصيلة لهذا اللسان، وانتهاج البحث الألسني العربي الأصيل القائم على أساس استعادة النظر في النصوص العربية الفصيحة، والتنظير بين ما وصل إليه البحث اللغوي العربي، وما يكتشفه الباحث المعاصر من ميزات وسمات قد تكون مجهولة عند القدماء، هو السمة الغالبة على البحث العربي المعاصر، وبذلك يمكن أن نعطي شيئاً مما تحتاجه العربية ـ اليوم ـ من الاهتمام.

إن ما وصل إلينا من أبحاث علم اللغة، في أوربا من طريق الترجمات، في علم الدلالة، وعلم الأصوات، وسائر المجالات التي يتناولها علم اللغة المعاصر، يختلف بمذاقه وطبيعته عما عرفه البحث اللغوي العربي، فقد تضمنت الدراسات الألسنة الأوربية، مناهج ومذاهب تصلح لدراسة اللغات الأوربية، ويمكن تطبيقها على الظواهر اللغوية ـ عندهم ـ ولو حاولنا تطبيقها على ظواهر العربية ـ لرأينا أن ثمة تكلفاً واضحاً بين ما ألفه الباحث العربي، وما يراه الباحث الأوربي، وهذه جملة من ضمور التأويل والتخريج بين الباحثين في قضايا صوتية، نستطيع من خلالها تبين ما درج عليه علم الصوت العربي، وما خرج به علم الصوت الحديث، وما ترك هذه الأخير من أثر في زعزعة الفكر الألسني العربي، وانحراف عن المسيرة المتوارثة عند أجيال الأمة، منذ القرن الثاني الهجري حتى اليوم.

wadod.org

تقول القاعدة العربية: إن الواو أو الياء تقلبان ألفاً إذا تحرك أي منهما، وانفتح ما قبلهما، نحو (قال) من (قول) وباع من (بيع)، وهذه القاعدة تطرد في أية حركة تقع على الواو أو الياء، سواء أكانت فتحة أم ضمة أم كسرة، نحو (طال) من (طول) و(خاف) من (خوف)[١]. وقد تعلمت الأجيال هذه القاعدة ودرجت عليها، وأصبحت جزءاً من كيانها اللغوي حتى هذه السنوات.

تناول البحث الصوتي الأوربي هذه الحالة[٢]، وطبق منهجه الخاص بها فذهب إلى أن الذي حصل لمثل: (قول) و(بيع) هو سقوط الواو أو الياء، فانزلقت الفتحة التي عليهما إلى الفتحة التي هي مصاحبة للقاف والباء، فامتدت الفتحة وأصبحت ألفاً طويلة ـ صائتاً طويلاً ـ. ولكن الذي يثير التساؤل ـ هنا ـ هو أن الفتحة، وهي القمة للقاعدة المحذوفة ـ كما يرون ـ قد اتفقت في التصويت مع الفتحة ـ فأصبحت مصوّتاً طويلاً، فكيف في مثل: (طول) و(خوف)، فهنا تلتقي ضمة ـ مصوت قصير ـ مع فتحة ـ مصوت قصير آخر ـ أو كسرة مع فتحة، فكيف نحوّل الضمة والفتحة إلى ألف، ولا تجانس بينهما، كما انه لا تجانس بين الفتحة والكسرة، ولم نغلّب الألف على الواو أو الياء، ولم نعكس؟! أليس في هذا ما يثير الغرابة؟ ففضلاً عن أننا غيرنا في مفاهيم وقواعد محددة وصلت إلينا، وأفهمتنا سبب الإعلال الذي حصل، دخلنا في متاهات جديدة أوجدها لنا البحث الصوتي المعاصر الذي اجتهد فيه هنري فليش، وكانتينو[٣] ومالبرج، وبرجستراسر ممن لا صلة لهم بالعربية، ولا بقوانينها، ولا بتراثها العريق الممتد في أصول هذه الأمة وحضارتها.

ولم يقف الأمر عند هذا، بل رأيناهم يختلفون في آرائهم عند تحليل واحدة من هذه الظواهر الصوتية، وهذا مثل آخر من الظواهر التي وصلت إلينا من الأقدمين، وهي قضية صياغة اسم الفاعل من المعتل العين، فالقاعدة تقول: إن الواو والياء وقعتا بعد ألف زائدة، قلبتا همزة، سواء أكانت في حشو الكلمة أم

---

(١) هذه القاعدة معروفة في كل كتب الصرف والنحو: انظر: شذا الصرف للحملاوي. ط: مصر. وعمدة الصرف لكمال إبراهيم ط: بغداد وغيرهما.

(٢) انظر: المنهج الصوتي في البنية العربية: د. عبد الصبور شاهين، وفقه اللغات السامية، بروكلمان: ترجمة: د. رمضان عبد التواب.

(٣) انظر مثلاً في ذلك: دروس في أصوات العربية لكانتينو: ترجمة صالح القرماوي ص١٤٨.

wadod.org

متطرفة، وذلك بنحو: (قائل) من (قاول) و(بائع) من (بايع) و(عجائز) من (عجاوز) و(قبائل) من: (قبايل) وهكذا[١]. مع ملاحظة: أن الواو والياء: إذا لم تكونا صوتي مد، لم تبدلا، نحو (معيشة) و(معايش)، و(مغارة) و(مغاور)، ويقول ابن عقيل: «إلا فيما سمع، فيحفظ ولا يقاس عليه، نحو مصيبة ومصائب».

تناول البحث الصوتي الحديث هذه القضية، فدخل في مزالق ما أنزل الله بها من سلطان، فهو يرى أن: (قائل وبائع) جاءتا من (قاول وبايع) ولكن الذي حصل هو سقوط الواو والياء، وهما قاعدتان، فبقيت قمتاهما الكسرة أي: أصبح اللفظ: (قا ـ ل) فتحولت هذه الكسرة ـ إلى همزة مكسورة، فلست أدري لم تسقط (الواو) و(الياء)، ثم لست أدري كيف يتحول الصوت ـ وهو الكسرة ـ إلى همزة مكسورة، أي (قاعدة + قمة)، ومن أين تكونت هذه القاعدة، ولماذا كانت الهمزة؟!.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد، لكانت القضية مجرد رأي، ولكن الأمر تعداها إلى الاختلاف في تفسيراتها عندهم في أكثر من رأي[٢].

وهذه الآراء هي:

١ـ يذهب (داود عبده) إلى أن (قائل) و(بائع) وأشباههما، هي في الأصل (قأول) و(بأيع) ثم حصل قلب مكاني، لهذه الصيغة فصارتا (قوئل) و(بيئع) فأسقطت الواو والياء ـ وأطيل مصوت القمة فصار ألفاً، قائل وبائع[٣].

٢ـ ويذهب (الطيب البكوش) إلى أن (الواو والياء) من (قاول) و(بايع) أسقطتا، فبقيت الكسرة ـ كما أشرت سابقاً ـ وحدها فجلبت لها الهمزة قاعدة فصارت: (قا ـل) و(با ـع) بحذف الواو والياء، ووضع الهمزة محلها[٤]، ولسنا ندري مصدر الهمزة عنده!.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل: ج٢/ ص٤٣٠، فما بعد.

(٢) انظر: دراسات في علم أصوات العربية: د. داود عبده: ٧٧، والتصريف العربي للبكوش: ١٥٣ـ١٥٤ وبحث: د. أحمد الحمو: محاولة السنية في الإعلال: ٣٧٤و١٨٢.

(٣) دراسات في علم أصوات العربية: د. داود عبده: ص٧٧.

(٤) ينظر التصريف العربي: للطيب البكوش: ١٥٣ـ١٥٤.

wadod.org

٣ـ يذهب (أحمد الحمو) إلى أن الأصل هو الكسرة في (قائل) و(بائع) وليس الهمزة، أي: أن الأصل هو (قا ـ ل) و(با ـ ع) ولفظتا همزة مكسورة، ثم وقع في تناقض عندما قال: (وليست الهمزة ناشئة من انقلاب الواو والياء) لأسباب ذكرها، منها: عدم نطق الصوت وحده، كما هو معروف في العربية، ولأن الفصل بين الألف والكسرة يحتاج إلى صامت يقع بينهما، فكانت الهمزة؛ ولأن (قال) و(باع) جاءتا من أصل ثنائي، وهو (قل) و(بع)[١] !!.

نقول له: ثم ماذا بعد ذلك، ولم أصبح النطق بهما على زنة (فاعل): قائل وبائع؟ وما المسوغ لذلك كله؟

وتجرد لهذه القضية عبد الصبور شاهين، ولم يتعد ما قاله فليش في هذا المضمار[٢]، وحمل المسألة فوق طاقتها.

ومثل ذلك كثير، يقف عنده الباحث المعاصر، فيجد التجني واضحا على علماء العربية، وباحثي اللغة في تاريخ البحث اللغوي العربي، كما نلمس ذلك عند ابراهيم أنيس حين يصفهم بأنهم ضلوا الطريق[٣].

وخلاصة القول: إن البحث الألسني المعاصر، بحث أوجدته ظروف اللغات الأوربية التي تختلف في انتماءاتها وتكوينها وبيئاتها وشعوبها المتكلمة بها وتأريخها وطبيعتها عن العربية وظروفها، اختلافا كبيرا، يجعلنا في موقف رافض لكل ما يراد من الباحثين المعاصرين العرب أن يسلكوه، أو يتعاملوا به مع العربية.

ولقد علمنا أن المستشرقين[٤] منذ بدء حركتهم الاستشراقية، توجهوا الى لغة القرآن، يثيرون حولها المشكلات والشبهات، ويدعون إلى دراسة أصواتها وتراكيبها بنهج غريب جديد دخيل: لتكون ـ هي أيضا ـ بين مفترق الطرق

---

(١) بحث في مجلة عالم الفكر المجلد: ٢٠، العدد٣، السنة ١٩٨٩م، بعنوان: محاولة ألسنية في الإعلال ص١٧٤ ثم ص١٨٤.

(٢) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: ص٩٠ و٢١٣.

(٣) انظر: الأصوات اللغوية: د. ابراهيم أنيس ص٣٩.

(٤) ينظر على سبيل المثال: نظرات استشراقية في الإسلام: د. محمد غلاب: ص٢١. ط: مصر، وأضواء على الاستشراق: عبد الفتاح عليان: ٤٣: ط: مصر: ١٩٨٠، والاستشراق: إسحاق الحسيني:٢٠: مصر: ١٩٦٧. والمستشرقون: علي الخربوطلي/ ٨٣/ مصر.

wadod.org

والاختلافات الذهنية بين الباحثين، وتضارب المناهج والمذاهب والأقوال، فالمصطلحات الخاصة بأصواتها، وصيغها وتراكيبها، وتعدد لهجاتها ـ كما نراه اليوم ـ في اختلافهم في مخارج الصوت الفلاني، وإضفاء صفة على صوت لا يضفيها باحث آخر، وتفسير ظاهرة لغوية معينة عند باحث، لا يتفق معه باحث آخر في تفسيرها، واستحداث مشكلات واختلاق صعوبات في نحو اللغة ورسم الحرف والإملاء والإعراب[1] والحركات، والفصحى والعامية، وصعوبة الطباعة وإلى غير ذلك مما لسنا بحاجة إلى سردها ـ هنا، وهي جميعها مشكلات نقلوها من أبحاثهم في دراستهم للغاتهم المختلفة إلى العربية بغية إشغال أبنائها، وإبعادهم عن التفكير في كيفية حمايتها وصيانتها، والتزام المناهج الأصيلة التي وصلت إلينا منهم.

وهذه الادعاءات التي يطلقونها في أبحاثهم، قد تلقى أذنا صاغية عند أهل العربية، هذا اليوم ـ أو قل: عند الجيل الجديد الذي فتح عينيه على ما دخل العالم الشرقي من مظاهر العلم والتقنيات وتطور الحياة، فبهرته هذه المظاهر وسحرته المخترعات، فعد كل ما يصنعه الغرب مثالا يحتذى به في العلم والمعرفة والبحث والثقافات، ونسي أن هذا الغرب قد كان أسير حضارة الأمة الإسلامية، وعلوم العرب، ومعارفهم، وأنه ما بنى حضارته المعاصر إلا على ما وصل إليه من حضارة الأمة العربية وعلومها، وأضاف إليها ما أنتجته الثورة الصناعية في أوربا بعد قرون الجهل والتخلف.

ومن المخاطر التي تواجهنا في هذه الحقبة الأخيرة الاتجاه الذي نراه عند الكثيرين ممن عنوا بالعربية، نحو التيسير والتجديد، وتغيير الحرف، ومحاولات رسم الحروف بأشكال مختلفة، بزعم التبسيط، وتذليل الصعوبة في الطبع والتعليم إلى غير ذلك من الدعوات.

---

(١) من أمثال كوهين الذي يذهب إلى خلو العربية من الإعراب، وأن صعوبة قواعد اللغة تدعو العربي إلى ترك الإعراب، فقه اللغة: د. وافي: ٢١١. وكذلك فولرز الذي يدعي أن لغة أهل مكة لم تكن معربة، في حين نزل القرآن الكريم بلغة أهل الحجاز، وهي معربة ـ لا كما يدعي. دراسات في فقه اللغة، د. الصالح: ١٢٢ والعربية: فك: ٤ فما بعد.
وأبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية، لكاتب البحث: مبحث: الإعراب.

wadod.org

ولقد اتسم الكثير من المواقف المعاصرة، باختلاق المشكلات للغة في نحوها وصرفها، وتوجيه النقد والتجريح إليها، واتسم بعضها الآخر بوصف ما هي عليه من الخصائص والسمات، ومعالجة قضاياها بموضوعية متزنة تتوخى الحقيقة وتبرز مظاهرها، وتحلها بالمحل الذي يليق بها لغة متميزة عن سائر لغات العالم.

والذين تناولوها بالنقد والتجريح، وإثارة المشكلات في التنظيم والبنية والإعراب ورسم الحرف يمكن أن نصنفهم على قسمين:

الأول: يدفعه إلى الحرص على أن يرى لغته سهولة ميسورة، يمكن أن يلقنها للأجيال المتعاقبة بالأساليب والمناهج التي تنافس العصر الذي يعيش فيه، لذلك نرى أمثال هذا النمط من الدارسين يكتبون أبحاثا في (نحو التيسير) و(مشكلات الحرف العربي) و(طباعته) و(الإعراب) ويعالجون أمثال هذه الموضوعات معالجات تتسم بالعقلانية، ومثل هذه الموضوعات المتأتية عن حرص صادق، وإيمان عميق بما ينبغي لأبناء اللغة من أن يؤدوا ما عليهم من واجب احترامها وحبها وتقديمها إلى الأجيال ميسورة سهلة، تفتح أبوابا للمشبوهين والمغرضين، ليستغلوا الإشارات إلى وجود مشكلات في إعرابها وحروفها، ومعضلات في تراكيبها وصيغها، مما يؤدي إلى خلق نوع من الشعور في النفوس بصعوبة تعلم هذه اللغة وتلقيها، وهذا أمر جدير بأن نضع له اعتبارا في أنفسنا حين نريد أن نحب لغتنا، وندعو إلى تعلمها، فلست أشك في إخلاص الدكتور أحمد الجواري، ولا الدكتور أحمد مطلوب، ولا غيرهما ممن أخلص لهذه اللغة، واعتنق كيانها، ونافح عنها، وأقام لها وزنا ثقيلا في نفسه.

ولكن مجرد الطرق على وتر التجديد والتيسير والتسهيل، يعني ـ عند ذوي الشبهات ـ وجود ما يضاد هذه المفاهيم من نحو: التقليدية، والجمود والعسر والصعوبة، في حين يعلم كل أبناء هذه اللغة، وكل المعنيين بها أنها عاشت أجيالا طويلة بعد الرسالة الإسلامية بنحوها وصرفها وبلاغتها، ودراساتها منذ كتاب سيبويه: (١٨٠ هـ) والكسائي: (١٨٩ هـ)، والفراء: (٢٠٧ هـ)، والمازني: (٢٤٨ هـ)، والمبرد: (٢٨٥ هـ)، وثعلب: (٢٩١ هـ)، والزجاج: (٣١١ هـ)، وابن السراج: (٣١٦ هـ)، وأبي على الفارسي: (٣٧٧ هـ)، وابن جني: (٣٩٢ هـ)، مرورا بمفصل الزمخشري: (٥٣٨ هـ) وشرحه لابن يعيش: (٦٤٣ هـ)، ومتون النحو لابن مالك: (٦٧٢ هـ)، وابن الحاجب: (٦٢٦ هـ) وشروحهما

wadod.org

الكثيرة حتى الدراسات الحديثة، إن هذه الكتب والمصنفات، والجهود المختلفة المصنوعة قد صنعت أجيالا من الأدباء والعلماء والخطباء المصاقع يكتبون بهذه اللغة، ويتواصلون بها، ويتحاججون ويناقشون، ويتحاورون. . وحتى يومنا هذا خرج الأزهر أمثلة رائدة في اللغة وآدابها، وما كان الأزهر ليدرس بالمناهج التي يدعو إليها رواد التجديد والتيسير في عصرنا الحاضر، بل التزموا علل النحويين القدامى، وساروا على وفق ما رسم الأوائل من طرائف ومناهج، فأعربوا وعللوا وقاسوا، وقالوا بالعوامل، وعرضوا تراكيب اللغة على المنطق والعقل، وخرجوا بما يقبله الذوق والعقل والوجدان، وما رأت الأجيال صعوبة في كل ذلك، إلا في عصرنا الحاضر حين بدأ الخراصون المغرضون من المستشرقين وصنائعهم يثيرون الأباطيل ويحرفون الحق، ويجملون الباطل، ويزوقون القبيح، ليجعلوه جميلا في نظر أبناء الجيل المعاصر.

والثاني: هو الفريق الهدام الذي عمل عامدا على التخريب والهدم وحرف المسيرة، فراح يشنع على اللغة وآدابها وقوانينها مدفوعا بعاملين:

١ـ الجهل بهذه اللغة ومكانتها وخصائصها المميزة، وقد راتها على التعبير الجميل، ومواكبتها لسنن التطور والتغيير، فحين يجد نفسه مكفوءا حسيرا خاليا من معرفة أبسط قواعدها وسننها يصمها بالصعوبة والعسر، ويدعو إلى مثل هذا الإحساس في الآخرين، ليكونوا معه عونا على الهدم والتشنيع، وأمثال هؤلاء كثيرون كتبوا على صفحات الجرائد والمجلات، روجت لهم أجهزة الإعلام المشبوهة، بل دفعتهم إلى الكتابة في مثل هذا الاتجاه: لينالوا من لغة القرآن الكريم، وأهلها. ومن أولئك ـ على سبيل التمثيل ـ ما كتبه[1] صلاح الساير عن العربية، وكنت أحد الذين ردوا عليه، فقد وصم العربية بالعقم، والجمود، وأطلق عليها لغة (الديناصور)، ودعا إلى ترجمة القرآن الكريم باللهجة العامية، وكتب صادق محقق، مقالا في مجلة المجتمع العلمي في دمشق بعنوان: تأثير اللغة الفارسية في العربية، وقد رددت عليه ببحث مستفيض عام: ١٩٨٩م، في جريدة (العراق) كما كتبت مقالات أخرى فيها الكثير من إظهار سمات هذه اللغة[2].

---

(١) جريدة السياسة الكويتية: عام ١٩٨٨، بعنوان: (خدعوها بقولهم: ضاد).

(٢) انظر مثلا: القادسية: ٢٦/ ك١: ١٩٩٣.

wadod.org

٢ـ العصبية، أو الحملة الشعوبية على الحرف العربي، وأهله، إذ لا يرى هذا الفريق الشعوبي الأممي في العربية: أنها لغة الدين، ولغة كتاب العزيز الذي هو تشريع وأحكام للأمة، وان هذه اللغة هي لغة أداء العبادات والطاعات، ولغة التواصل بين أبناء الأمة، وأن علاقتها بالإسلام علاقة جذرية صحيحة، وأنها اللغة التي اختارها الله(تعالى) لكتابه على لسان نبيه العربي محمد(صلى الله عليه وسلم)[١].

ومن هؤلاء جمع كبير من أبناء اللغة الضالين، وعلى رأسهم من الأجانب: المستشرقون اليهود، والمتعصبون لأوربا، كتبوا على صفحات الجرائد والمجلات ووضعوا في ذلك كتيبات، من أمثال داوود جلبي، الذي دعا إلى إبدال الحرف العربي إلى لاتيني، وسعيد عقل الذي دعا إلى إشاعة العامية ونبذ الفصيحة، وغيرهما، والكل متابعون لو يلمور، ووليم سبيتا، وولكوكس وكوهين، من اليهود والمستشرقين الذين أثاروا بخبث واضح، شبهات ما أنزل الله بها من سلطان، ما يدفعهم في ذلك إلا الرغبة في هدم اللغة العربية، وتشويه صورتها الجميلة، في أهلها وغيرهم، وهم يعلمون أن كل ما يختلقون من «صعوبة تعلمها» أو «عسر نحوها» أو « تعقيد رسم حروفها وكلماتها» أو «عدم قدرتها على أشكال التعبير» أو «عدم مواكبتها الأنماط الحضارية المختلفة، والعلوم ومستجداتها، والتطور...» إلى غير ذلك ـ إنما هو ضرب من الاختلاق والوهم، والقصد منه تقبيح الصورة التي يحملها أبناؤها عنها في مخيلتهم، وفي واقعهم، وفي نفوس الراغبين في تعلمها واعتناقها.

ولو وجهنا سؤالاً إلى أمثال هؤلاء: كيف أتقنتموها أنتم، وكتبتم بها، وحققتم كتب تراثها العلمي والأدبي، ونشرتم الأبحاث والمقالات بأساليبها الدقيقة، وعباراتها الفصيحة السليمة، وكيف ألّفتم فيها الكتب التي يضيق الحصر عنها؟. وهذه جملة كبيرة جداً من كتب تراثها قد وصلت إلينا محققة بأيديكم تدل على عمق في معرفتها، وقدرة غريبة على الكتابة بها والتأليف، لِمَ لَمْ تعتوركم صعوبة؟ أو يقف أمامكم دون تعلمها وإتقانها شيء مما ادعيتَم من تعقيدها، وعسرها؟!.

---

(١) إثارة المشكلات تجاه العربية: القادسية: السنة: ١٩٩٣ في ٢٦ كانون الأول.

wadod.org

إنهم استطاعوا أن يفهموها ـ وهم الغرباء عنها ـ وأن يعرفوا دقائقها، وأن يتصرفوا بأساليب التعبير بها بيسر وسهولة ـ وهي على حسب ما ادعوا عسيرة صعبة ـ، في حين صوروها للآخرين في غاية المعاظلة والتداخل والتعقيد، وكل ذلك معروف الأهداف واضح الغايات، على ذوي البصائر.

إذا كانت الغاية في التجديد والتيسير ـ عند الباحثين المعاصرين ـ هي إيجاد سبيل تربوي علمي موضوعي لتعليم النشء، وإيصالها إلى طالبي تعلمها من غير الناطقين بها، فليس في ذلك من بأس ولا ضير، مع أنني أحتفظ برأيي السابق، وهو أن أساليب تعليمها المستقدمة، كانت ناجحة، وهي التي تكفلت بتكوين فطاحل الأدباء والمفكرين والمثقفين، وقادة العلم والاجتماع والتربية، والفلاسفة ـ ولم تكن تلك الطرائق عقبة في طريق تلقيها وتعلمها.

ولئن كانت بعض الإثارات المعاصرة ترمي إلى طرح نظرة جديدة في بعض تصورات النحويين القدامى في موضوع: التعليل و العامل و التأويلات العقلية والمنطقية لتراكيب اللغة وأبنيتها، إن ذلك أمر لا يدعو إلى الإنكار أو الاستغراب فنحاة العربية انقسموا على فريقين: فريق آمن بالعقل والقياس في تحليل الجملة العربية، وبنيته المفردة. وفريق أوكل الأمر إلى الشائع في الاستعمال، وحكم السماع والنقل والرواية لنصوص اللغة، وقال ما قالته العرب.

وهذه الأمور قد لقيت نقدا ـ وان كان محدودا من بعض النحويين القدماء، كقطرب محمد بن المستنير: (٢٠٤ هـ) الذي ادعى أن الحركة جيء بها في الكلام العربي ليسهل نطق الكلمات في درج الكلام، وقد رد قوله، بأن للحركة تأثيرا في الدلالة التركيبية والسياقية، ومراد التكلم منها، فضلا عما ذهب إليه قطرب، وكابن مضاء القرطبي: (٥٩٢ هـ) الذي ادعى أن النحويين أغرقوا في التأويل والتفتيش عن العلل الثواني والثوالث، وتأثير العامل في تغيير حركة الفاعل والمفعول.. الخ.

وحين نتأمل مذهبه نجده يفتش عن تأويلات أخرى للجملة العربية، تضيف مذهبا آخر إلى مذاهب النحاة السابقة، فضلا عن أن مذهبه ذلك وقف عليه ولم يسايره أحد، ولم يلق أذنا صاغية، ولم يتعد حدود زمنه، ولا حاول أحد أن يرجع إليه لتأكيد رأي ـ حتى كانت الدراسات الحديثة التي اتخذت من نظرته تلك

wadod.org

مسلكا تطرقه للحديث عن التجديد والتغيير والتيسير، كما فعل إبراهيم مصطفى في مصر[١].

لقد كانت اللغة ـ وما تزال ـ تدرس بأي منهج وتقدم للمجتمع أفذاذا في الأدب والشعر، وفنون التعبير المتنوعة.

ولئن كان العصر الجاهلي قد طلع بامرئ القيس وغيره من فطاحل الشعر، والخطباء، وبنوادر الأمثال، وفنون البلاغة في القول، لقد صنعت هذه اللغة أفذاذا من البلغاء والفصحاء من عصر الرسول ـ ص ـ حتى يومنا هذا، وهل الحبوبي والبارودي وشوقي والرصافي وحافظ والجواهري، وشعراء المهجر، وشعراء الوطن العربي كله وشعراء العالم الإسلامي، وفطاحل خطبائه وكتابه وعمالقة الأدب والقصة والمسرحية، والثقافة إلا من صنائع هذه اللغة المعطاء، المقتدرة على أن تكون بنت عصرها وأم أبنائها في كل وقت؟!.

ثم ما الذي نقصده من التيسير؟ هل نريد أن نبدل الفاعل فنجعله تمييزا، ونقلب الحال إلى مضاف إليه، ونقدم المجرور على حرف الجر، ونشوه صورة الحرف ليستساغ منظره عند دعاة التيسير ـ أو نبدله لاتينيا ليطمئن لهم بال، ويهدأ لهم قلب؟!

إن كل لغة لها نظامها، وأنساقها وقواعدها وخصائصها، وان ذلك كله مرهون بنظام ثابت مستقر لا يمكن تغييره، لأن نظام أي لغة هو سمة خاصة بها، وأن الذي يمكن أن يدخله التغيير ـ وان كان في حدود ضيقة في أية لغة ـ هو بعض أصواتها ـ وبعض دلالات مفرداتها تبعا لقوانين التطور الدلالي، وانتقال المعنى، والمواقف الكلامية، والسياقات المختلفة وتأثير المجازات التعبيرية، وفيما عدا ذلك تبقى المفردة محافظة على دلالتها المعجمية، ودلالاتها العرفية الاجتماعية والاستعمالية داخل التركيب.

إن الدعوة إلى التيسير ـ في نظري ـ ينبغي لنا أن نكون حذرين من قبولها، وان نحددها في:

١ ـ محاولة إيجاد الوسائل المناسبة لإيصال هذه اللغة إلى الأجيال المستقبلة والى متعلميها.

---

(١) ينظر كتابه: إحياء النحو ـ ط: مصر.

wadod.org

٢ـ محاولة الإبقاء على خصوصياتها المميزة لها بين لغات العالم، بالحفاظ على سلامتها في النطق وسلامة قواعدها ومفرداتها التي عهد الدرس النحوي العربي دون الإخلال بها، ومحاولة تهذيب الفضول الزائد ـ إن وجد ـ قدر الامكان.

فليس صحيحاً عدم التنبيه على وجود ما يعرف بالاشتغال أو التنازع في تراكيب الجملة العربية، لأن ذلك من خصوصياتها، ولكن بالإمكان تجاوزه في الدرس النحوي التعليمي، بعد إفهام الطالب بأصوله، لئلا يقع تركيب مماثل لحالة التنازع ـ مثلاً ـ فيكون غريباً على ابن اللغة. وأما أن يكون الموضوع مهملاً حتى في الدراسات المتخصصة ـ العليا ـ فذلك ما لا ينبغي أن يكون؛ لأن الباحث العلمي مطالب بمعرفة كل صغيرة وكل كبيرة في اللغة التي يتخصص بدراستها.

إن سوسير قد ذهب إلى أن اللغة نظام ثابت وأن تراكيبها وجملها هي قوالب يجترها الناطق، فهل هذا إلا دليل على ثبوت القواعد والأحكام في نظام أية لغة، فلماذا نفكر في التغيير والتجديد والتطوير والتيسير؟!.

ولقد وضع تشومسكي نحوه التوليدي ـ التحويلي على النحو التقليدي، وجعل للمنطق مكاناً في قبول التركيب ورفضه، فهل كان تشومسكي يفكر بتفكير النحو العربي؟

لا أرى نعرات التغيير وصيحات التجديد إلا محاولات هدمية لكيان العربية، وإذا تسامحت بشيء من التيسير فلا اكثر مما أشرت إليه، من غير مساس بكيان اللغة المتميز بين سائر اللغات الأخرى.

wadod.org

القرّاء والحركة الفكرية في العهود الإسلامية الأولى

❑ الدكتور هادى حسين حمود

كان ظهور الإسلام حدثاً هاماً في تاريخ العرب، وفي التاريخ العالمي ليس من النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإنما كان له أثره البالغ في قيام حركة فكرية متنوعة الجوانب شملت علوماً دينية ودنيوية رائدة.

ولا غرابة في ذلك، فقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بالعلم حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، مشيراً إلى أهميته الموازية للشهادة.

لقد وردت آيات قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة حثت على العلم، وأشارت إلى أهمية التفكير فيه، والسعي في طلبه، لذلك فقد شهدت المدينة المنورة منذ أن حل الرسول (ص) فيها حركة علمية تطورت فيما بعد لتشمل كافة أرجاء الدولة العربية الإسلامية الفتية.

كان القراء الذين نسبوا إلى قراءة القرآن وكذلك إلى الزهد[1] الجماعة الأولى التي قامت على أكتافها الحركة العلمية الأولى في صدر الإسلام، لأنهم كانوا يتميزون بمعرفة القراءة والكتابة، وهم الطبقة المثقفة في المجتمع العربي في صدر الإسلام. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: (. . . وكانوا يسمّون المختصين بحمل ذلك ونقله[2] [أي حمل العلم ونقله] القراء، أي الذي يقرؤون الكتاب وليسوا أميين. .).

---

(١) السمعاني، عبد الكريم بن محمد، كتاب الأنساب، (ليدن، ١٩١٢) الورقة ٤٤٤ ب .

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، المطبعة البهية، (القاهرة لا . ت)، ص٤٠١.

wadod.org

ظهرت الجهود الأولى للقراء منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام، وكان (مصعب بن عمير) القارئ الأول في الإسلام[٣] أول من رحل إلى يثرب (المدينة المنورة) بعد العقبة الأولى، ليعلم من بها من المسلمين القرآن الكريم، ويفقههم في الدين (... ويعلمهم الإسلام فكان يسمى بالمدينة المقرئ وكان منزله [أي نزوله] على أسعد بن زرارة)[٤]، وتشير رواية أخرى إلى أن مصعباً كان يصلي بالمسلمين في المدينة (... ثم خرج مع السبعين [الذين بايعوا الرسول (ص) في العقبة الثانية] حتى وافوا الموسم مع رسول الله...)[٥]. كما تشير روايات أخرى إلى أن مصعباً (... أول من جمع في الإسلام جمعه...)[٦] استمر نشاط مصعب بن عمير في يثرب بعد العقبة الثانية، وكان يعاونه في ذلك قارئ آخر هو ابن مكتوم الأعمى[٧] واستمر الحال كذلك حتى قدوم رسول الله (ص) إلى المدينة المنورة. هذا وتشير بعض المصادر إلى وجود (دار للقراء) هي دار مخرمة بن نوفل[٨] نزلها ابن أم مكتوم بعد قدومه إلى يثرب، إلا أننا نجهل ما كان يجري فيها من نشاط إقرائي أو ثقافي.

والحق أن نشاط القراء الثقافي والتعليمي بدأ بشكل واضح بعد الهجرة فكانوا جزءاً هاماً ونشيطاً من (أهل الصفة) الذين كانوا يقيمون في ظلة المسجد، كان أهل الصفة « ناساً من أصحاب رسول الله لا منازل لهم، فكانوا ينامون على عهد رسول الله... في المسجد ويظلون فيه، مالهم مأوى غيره، فكان رسول الله... يدعوهم إذا تعشّى فيفرقهم على أصحابه وتتعشّى طائفة منهم مع رسول الله... حتى جاء الله بالغنى)[٩].

---

(٣) ابن هشام، عبد الملك، سيرة النبي، ج٢، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (القاهرة، ١٣٨٣هـ). ص٤٢، الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، ١٩٦١)، ص٣٥٧، أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١، (بيروت، ١٩٦٧)/ ص١٠٧ ويشير السمهودي إلى أن مصعب بن عمير كان يسمى المقرئ (وهو أول من سمي به).

(٤) ابن هشام ٤٢/٢.

(٥) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، ج١، (بيروت، ١٩٥٧، ص٢٢٠).

(٦) ابن سعد ١١٨/٣، أبو نعيم ١٠٧/١.

(٧) ابن سعد ١١٧/٣، ٢٠٦/٤.

(٨) ابن سعد ٢٠٥/٤.

(٩) أيضاً ٢٥٥/١.

wadod.org

كان القراء جزءاً مهماً من أهل الصفة. وكان نشاطهم واضحاً في النواحي الثقافية فكانوا (يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء...)[١٠] وفي حديث أنس بن مالك: (... كانوا إذا جنهم الليل آووا إلى معلم لهم بالمدينة يبيتون يدرسون القرآن...)[١١].

وقد أشار أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) إلى مجموعة كبيرة ممّن نزل الصفة يتعلم أو يعلم القرآن، وممن كان يقيم في تلك الصفة إقامة مؤقتة أو دائمية ومنهم سالم مولى أبي حذيفة، وأبو وائل شقيق بن سلمة، وعقبة بن عامر الجهني، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، ومصعب بن عمير، وأبو حليمة معاذ القارئ، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن حوالة الأزدي، وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود الصحابي الجليل والقارئ المعروف[١٢] وقد أصبح أولئك القراء فيما بعد من مشاهير حملة القلم في الإسلام، وكانت لهم مساهماتهم الخاصة في المدينة المنورة وفي الأمصار الإسلامية الأخرى، ففي عهد الرسول (ص) كان للقراء دورهم المميز في تثبيت دعائم الإسلام، وذلك بإقرائهم المسلمين الجدد القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ الإسلام، وكان لهم دور واضح في إقراء وتدريس القرآن الكريم للوفود التي وردت مسلمة مبايعة للرسول لا سيما بعد تحرير مكة[١٣]. وفي العهد الراشدي استعان بهم الخليفتان أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان (رض) في تدوين وجمع القرآن وفي توحيد قراءته، وليس هذا مجال التفصيل في جهود أولئك القراء في هذا الصدد، فقد أسهبت كتب القراءات وغيرها في ذلك.

---

(١٠) أيضاً ٥١٤/٣.

(١١) أبو نعيم ١٢٣/١.

(١٢) أيضاً ١/٣٧٠، ٣٧٥، ٧/٢، ١١، ٢٠، وانظر ابن سعد ٤٠٨/٧.

(١٣) انظر مساهمات القراء في عهد الرسول (ص) وفي إقراء الوفود القرآن وتعليمهم مبادئ الإسلام: ابن عساكر، علي بن الحسين، تاريخ مدينة دمشق، ج١٠، تحقيق محمد أحمد دهان/ (دمشق، لا . ت)، ص٩٥، ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، (القاهرة، ١٣٢٨هـ)، ص٢٤١ ـ ٤٢، ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢، طبع على هامش كتاب الإصابة، ص٤٩١، ابن سعد ٣٤٥/١، ٣٣٦، ٣٣٧.

wadod.org

هذه مقدمة مختصرة كان لا بد منها للتعريف بالقراء وبأثرهم في الحياة الإسلامية الأولى، والحق أن هذه الدراسة تهتم بشكل أساسي بالجوانب الفكرية، وبنشأة العلوم العربية الإسلامية التي كان القراء روادها الأوائل، وهذا ما سوف أتحدث عنه فيما يأتي من الكلام.

كان القراء من أوائل العلماء العرب المسلمين الذين ثبتوا العلم بالتدوين بعد أن كان يجري شفاهاً على ألسن الناس، كما كانوا من أوائل المهتمين بإنشاء الحلقات العلمية التدريسية الأولى في المساجد، كما كان لهم دورهم الرائد في تثبيت التقليد الإسلامي المعروف بـ (الرحلة في طلب العلم)، ذلك التقليد الذي اصبح فيما بعد من مستلزمات الثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى جهودهم الرائدة في ميادين العلم والمعرفة.

القراء والرحلة في طلب العلم:

انتشر العرب المسلمون بعد حركات التحرير في أجزاء شاسعة من قارتي آسيا وأفريقيا وجزء من أوروبا، حاملين معهم رسالة الإسلام وتراثهم القديم، وكان قسم من أولئك العرب، من صحابة وتابعين، قد حفظوا كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة، وأحاديث الرسول، وسنته، وبعضاً من الآراء الفقهية كما كان البعض منهم شاهد عيان لكثير من وقائع الإسلام وحروبه، الأمر الذي جعلهم خير رواة لمغازي الرسول (ص) وسيرته، وأحداث صدر الإسلام.

لقد اقتضت متطلبات المجتمعات العربية الإسلامية، وما حدث فيها من تطور اجتماعي وعلمي معرفة أحكام القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) وسنته، و كثير من الآراء الفقهية في القضاء وغيره، الأمر الذي جعل البعض منهم يرحل للقاء البعض الآخر، والآخذ مما لديه من أحكام وفقه ومرويات.

ولقد أسهم القراء في تلك الرحلات العلمية الرائدة، وشاركوا في رفد العلوم العربية الناشئة حديثاً بكثير من المرويات. يقول زربن حبيش القارئ «وفدت في خلافة عثمان بن عفان، وإنما حملني على الوفادة لقاء أبي بن كعب وأصحاب رسول الله . . .»[١٤].

---

(١٤) الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق نور الدين عتر، (بيروت، ١٩٧٥)، ص٩٢.

wadod.org

ويذكر الشعبي أنه «لم يكن أحد من[١٥] أصحاب عبد الله [ابن مسعود] أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق» ويقول أبو العالية الرياحي: «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله بالبصرة فما نرضى حتى أتيناهم فسمعنا منهم»[١٦]، ويقول أيضاً: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه..»[١٧]. أما سعيد بن المسيّب القارئ الفقيه فكان يقول «إني لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد»[١٨] أما عكرمة تلميذ عبد الله بن عباس فإنه، كما يقول الإمام أحمد بن حنبل، «.. لم يدع موضعاً إلا خرج إليه: خراسان والشام واليمن ومصر وأفريقية...»[١٩].

وكان الضحاك بن مزاحم الذي عرف بشدة عنايته بالقرآن وتعليمه «يقيم بمرو مدة ويبلخ زماناً وربما أقام ببخارى أو بسمرقند حيناً»[٢٠]. ورحل الحسن البصري إلى الكوفة ليستمع إلى حديث في الفداء[٢١]. كما رحل محمد بن سيرين القارئ البصري إلى الكوفة للقاء مشاهير قرائها والأخذ منهم، ومنهم عبيدة السلماني وعلقمة بن قيس وعبد الرحمن بن أبي ليلى[٢٢]. كما رحل ابن شهاب الزهري إلى الشام للقاء مشاهير القراء هناك أمثال: رجاء بن حيوه وابن محيريز وغيرهما[٢٣].

---

(١٥) الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن، المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، تحقيق محمد عجاج الخطيب، (بيروت/ ١٩٧١)/ ص٤٢٢.

(١٦) ابن سعد ١١٣/٧، الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث/ ص٩٣.

(١٧) الخطيب البغدادي: الرحلة، ص٩٣.

(١٨) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، معرفة علوم الحديث، تحقيق السيد معظم حسين، ط. ثانية (بيروت، ١٩٧٩)، ص٨، الخطيب البغدادي، الرحلة، ص١٢٧.

(١٩) الذهبي، أحمد بن محمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ق٣، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة/ ١٩٦٣) ص٩٦.

(٢٠) ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، تصحيح فلا يشهمر، (القاهرة، ١٩٥٩)، ص١٩٤.

(٢١) الخطيب البغدادي، الرحلة، ص١٤٣.

(٢٢) الرامهرمزي، ص٢٣١.

(٢٣) أيضاً، ص٢٣١.

wadod.org

القراء والتدوين:

ساهم القراء في تثبيت العلوم العربية الإسلامية، وذلك بتدوينها وحفظها من الضياع والنسيان، بعد أن أصبح ذلك التدوين أمراً ضرورياً بعد تطور المجتمع العربي الإسلامي، واستقرار العرب في الأمصار الجديدة، وازدهار الحركة العلمية فيها.

لقد أحجم العرب المسلمون في البداية عن تدوين الحديث النبوي، لما قد يختلط بما يدون منه بالقرآن الكريم. وقد أورد ابن قتيبة أحاديث نبوية كثيرة أشارت إلى عدم إباحة تدوين الحديث النبوي، ثم أورد أحاديث نبوية أخرى أباحت التدوين، وعلق ابن قتيبة على ذلك بقوله أن الرسول (ص) «كأنه نهى في أول الأمر عن أن يكتب قوله، ثم رأى بعد ـ لما علم أن السنن تكثر وتفوت الحفظ ـ أن تكتب وتقيد»[٢٤]. ويبدو أن مسألة التدوين أصبحت مسألة حضارة لا غنى للثقافة العربية الإسلامية عنها، ويقول الخطيب البغدادي بصدد ذلك: «... إنما اتسع الناس في كتب العلم، وعولوا على تدوينه في الكتب بعد الكراهة لذلك، لأن الروايات انتشرت والأسانيد طالت، وأسماء الرجال وكناهم وأنسابهم كثرت، والعبارات بالألفاظ اختلفت، فعجزت القلوب عن حفظ ما ذكرنا...»[٢٥].

وعلى كل حال فيبدو أن التدوين قد بدأ في عهد مبكر في صدر الإسلام، وكان القراء رواده الأوائل، فقد سجل بعض أولئك القراء أحاديث الرسول وسنته وبعضاً من الأحكام الفقهية، وجرهم ذلك إلى تدوين مغازي الرسول (ص) وسيرته، لعلاقة ذلك بالقرآن الكريم وتفسيره وبالحديث النبوي والسنة الشريفة.

سأتحدث أولاً عن جهود القراء في تثبيت العلم بواسطة التدوين، مع الإشارة إلى من كانت عنده منهم صحيفة أو كتاب في الحديث والفقه وغيرها، على أن أعرج على جهود القراء في كل علم من العلوم الإسلامية في فقرات لاحقة.

كان لعبد الله بن مسعود مسند[٢٦]. وكان لتلميذه عبيدة السلماني كتب[٢٧]. ويظهر أن أبا الدرداء كان يملي على تلاميذه، فقد جاء رجل من أهل الشام إلى

(٢٤) تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد زهدي النجار، (القاهرة/ ١٩٦٦)، ص٢٨٦ – ٨٧.

(٢٥) تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، ط٢، ١٩٧٤، بدون ذكر محل الطبع، ص٦٤.

(٢٦) ابن حجر، الإصابة: ١٧٨/١.

(٢٧) ابن سعد ٩٤/٦.

wadod.org

عبد الله بن مسعود « ومعه صحيفة فيها كلام أبي الدرداء وقصص من قصصه»[٢٨]
أما عبد الله بن عمرو بن العاص فقد كانت له صحيفة كان يسميها الصادقة ، كتب فيها أحاديث نبوية استأذن من الرسول (ص) أن يسجلها عنه[٢٩] . وقد سأله عنها القارئ المفسر مجاهد بن جبر ، فقال له عبد الله : « هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد »[٣٠] .

إن تدوين عبد الله بن عمرو بن العاص لأحاديث الرسول (ص) قد جعله موضع تقدير واحترام ، وكان أبو هريرة يقول : « ما كان أحد أحفظ لحديث لرسول الله... مني إلا عبد الله بن عمرو ، فانه كان يعي بقلبه وأعي بقلبي ، وكان يكتب وأنا لا أكتب »[٣١] .

أما عبد الله بن عباس فكان يأتي أبا رافع مولى رسول الله فيقول : « ما صنع رسول الله... يوم كذا؟ وما صنع رسول الله... يوم كذا ، ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها »[٣٢] . وكان ابن عباس يقول « خير ما قيد به العلم الكتاب »[٣٣] .

وكان عامر الشعبي من أشهر الداعين إلى تدوين العلم خوفاً عليه من الضياع فكان يقول : (الكتاب قيد العلم)[٣٤] ، وقال لأحدهم : (لا تدعن شيئاً من العلم إلا كتبته ، فهو خير لك من موضعه في الصحيفة وأنك تحتاج إليه يوماً)[٣٥] .

وكانت لعروة بن الزبير بن العوام كتب في موضوعات مختلفة ، منها كتب في الحديث والتاريخ ، ويبدو أن بعضاً من كتبه كانت تحتوي على وثائق تاريخية ، فيذكر أحد الرواة أنه قرأ كتاب قطيعة عروة بن الزبير بالعقيق (... في كتب عروة...)[٣٦] .

---

(٢٨) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ص٥٤.
(٢٩) ابن سعد ٤٩٤/٧.
(٣٠) أيضاً ٧/ ٤٩٤ – ٩٥.
(٣١) ابن عبد البر، الاستيعاب ٣٤٧/١، وراجع أيضاً: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ص٨٢.
(٣٢) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ص٩١ – ٩٢.
(٣٣) أيضاً، ص٩٢.
(٣٤) أيضاً، ص٩٩.
(٣٥) أيضاً، ص١٠٠.
(٣٦) السمهودي، ١٠٤٣/٣.

wadod.org

أما سعيد بن جبير القارئ المعروف فكان يملي على تلاميذه، فكان بعضهم (يختلف إلى سعيد بن جبير معه التفسير في كتاب ومعه الدواة يقيد)[٣٧].

أما الحسن البصري فكان علمه في صحيفة[٣٨]. وكان الحسن يقول: «إن لنا كتباً نتعاهدها»[٣٩].

وبلغ التدوين أوجه عند ابن شهاب الزهري القارئ (ت ١٢٤هـ)، فكان كما قال الإمام مالك بن أنس: «أول من دون العلم...»[٤٠].

ويروي ابن سعد عن أحد رواته عن أحد معاصري الزهري قوله: «كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد (ابن يزيد) فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه يقول: من علم الزهري»[٤١].

ويقول أبو الزناد (عبد الله بن ذكوان) وهو أحد الفقهاء المعاصرين للزهري: «... كنت أطوف أنا والزهري ومعه ألواح وصحف فكنا نضحك به، وكان يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس»[٤٢]، ويقول صالح بن كيسان وهو من معاصري الزهري: «اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا بكتب السنن، فكتبنا ما جاء عن النبي. ثم قال: نكتب ما جاء عن أصحابه، فإنه سنّة، فقلت أنا: ليس بسنة فلا تكتبه، قال: فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعت»[٤٣].

والظاهر أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد أوكل إلى الزهري، ومعه بعض الفقهاء، أمر بتدوين السنة في عصره، وبصدد ذلك يقول الزهري نفسه: «أمرنا

---

(٣٧) ابن سعد ٢٦٦/٦.

(٣٨) الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، ج٣، (القاهرة ١٣٦٧هـ)، ص١٠٠.

(٣٩) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحلمه، ج١، (المدينة المنورة/ ١٩٦٨)، ص٨٩.

(٤٠) ابن الجوزي، أبو الفرج، صفة الصفوة، ج٢، (حلب/ ١٩٦٩)، ص١٣٧.

(٤١) الطبقات الكبرى ٣٨٩/٢.

(٤٢) ابن الجرزي، أبو الخير محمد، غاية النهاية في طبقات القراء، ج٢، تحقيق برجستراسر، (القاهرة، ١٩٣٣) ص٢٦٣.

(٤٣) الخطيب البغدادي، تقييد العلم ص١٠٧.

wadod.org

عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفترا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً»[٤٤].

ويظهر أن مجاهد بن جبر القارئ المفسر الشهير كانت له كتب، فيذكر أحد طلبة العلم أن مجاهداً: «كان... يصعد بي إلى غرفته فيخرج إليّ كتبه فأنسخ منها»[٤٥].

وهكذا أسهم مشاهير القراء في تثبيت نصوص الأحاديث والفقه وغيرهما من ضروب العلم الأخرى، فكانوا بذلك أصحاب الأيادي البيضاء في تثبيت وإرساء العلوم العربية الإسلامية.

القراء والعلوم العربية والإسلامية:

تميزت العهود الإسلامية الأولى بعدم التخصص في علم من العلوم، وكان القراء تبعاً لذلك على اطلاع بعلوم الدين من حديث وفقه وتفسير وغيرها من العلوم، إضافة إلى معرفتهم بقراءة القرآن الكريم.

يشير الجاحظ إلى أن: «الذين ثبتوا العلم في الدنيا أربعة: قتادة (ابن دعامة) والزهري والأعمش والكلبي»[٤٦]. والثلاثة الأوائل من القراء، ويقول علي بن المديني (مؤرخ الفقه المشهور): «نظرت فإذا الأسناد يدور على ستة، فلأهل المدينة ابن شهاب، ولأهل كله عمرو بن دينار، ولأهل البصرة قتادة بن دعامة ويحي ابن أبي كثير، ولأهل الكوفة أبو الحق السبيعي وسليمان بن مهران الأعمش»[٤٧].

وكان لعبد الله بن عباس أثره الكبير في رفد العلوم العربية الإسلامية بمعين لا ينضب من علوم القرآن والتفسير والحديث والعربية وغيرها، وقد اشتهر في التاريخ أنّ مجلسه العلمي متعدد الجوانب.

ويقول عطاء بن أبي رباح القارئ: «ما رأيت مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس... إنّ عنده أصحاب القرآن يسألون، وعنده أصحاب الشعر يسألون،

---

(٤٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم ٩٢/١.

(٤٥) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ص١٠٥.

(٤٦) البيان والتبيين، ج١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (القاهرة، ١٩٤٨)، ص٢٤٢.

(٤٧) الرامهرمزي، ص٦١٤ – ٦١٥.

wadod.org

وعنده أصحاب النحو يسألون كلهم بصدد في واد واسع »[٤٨]. وقد وصف أحد معاصري ابن عباس ذلك المجلس فقال: « لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخراً، رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر أن يجيء ولا أن يذهب، قال فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه... » فقام فتوضأ وجلس ثم أخذ يستقبل الناس على شكل دفعات، فكان أحدهم يخرج إلى الناس فيقول لهم: من كان يريد كذا من العلم فليدخل، وقد استقبل ابن عباس أولاً (من أراد أن يسأل عن القرآن وحروفه) ثم استقبل دفعة أخرى كانت تريد التفسير والتأويل، واستقبل دفعة أخرى كانت تريد معرفة الحلال والحرام، ثم استقبل من يريدون الفرائض، ثم استقبل أخيراً من يريدون العربية والشعر والغريب[٤٩] هذا وتشير رواية أخرى عن عبيد الله بن عبد الله القارئ أن ابن عباس كان يخصص لكل علم يوماً[٥٠].

وكان ابن عباس، كما يقول ابن أبي مليكة القاري: « إذا رأيته رأيت أصح الناس، وإذا تكلم فأعرب الناس، وإذا أفتى فأفقه الناس... »[٥١].

ويطول بنا الحديث لو أسهبنا في الكلام عن ابن عباس وعلمه، ولكننا لابد أن نوضح للقارئ الكريم مدى براعة هذا الرجل، وذلك بإجابة عن أسئلة أشهر زعماء الخوارج في عصره، وهما (نافع بن الأزرق) و(نجدة بن عويمر)، فقد قالا له: « إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة ذلك من كلام العرب» فكانا يسألانه عن الآية فيأتي بما ورد فيها من كلمات مطابقة لكلام العرب وذلك بإيراد بيت من الشعر فيه تلك الأجوبة المطلوبة[٥٢].

وقد ولع القارئ الفقيه ابن شهاب الزهري بالعمل ولعاً عظيماً، فقد: « كان يأتي بالمجالس في صدورها، ولا يلقي في المجلس كهلاً بالعلم إلا سأله، ولا شاباً

---

(٤٨) البسوي، يعقوب بن سليمان، كتاب المعرفة والتاريخ، ج١، تحقيق أكرم ضياء العمري (بغداد، ١٩٧٤) ص٥٢٠.

(٤٩) ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/٧٥٠ – ٧٥٢.

(٥٠) ابن سعد ٢/٣٦٨.

(٥١) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، ج٤، (القاهرة، ١٩٦٢)، ص٨.

(٥٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ج١، (القاهرة/ ١٩٥١) ص١٢٠ – ١٣٣.

wadod.org

إلا سأله، ثم يأتي الدار من دور الأنصار فلا يلقي فيها شاباً إلا سأله، ولا كهلاً عجوزاً ولا كهلة حتى يحاول ربات الجمال... »[٥٣].

ويقول الليث بن سعد فقيه مصر: « ما رأيت عالماً أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علماً منه، ولو سمعت من ابن شهاب يحدث في الترغيب فتقول: لا يحسن إلا هذا، وان حدث عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا، فان حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت: لا يحسن إلا هذا...» وكذا حديثه عن القرآن والسنة[٥٤]. ويقول ابن حبان أن الزهري: « كان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار وكان فقيهاً... »[٥٥]. والحق أن الزهري كان حقاً كما وصف نفسه بقوله: « ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره مثل نشري »[٥٦].

وكان زيد بن أسلم القاري: « من أهل الفقه والعلم، وكان عالماً بتفسير القرآن»[٥٧]، أما يحيى بن يعمر فكان: « عالماً بالقراءة والحديث والفقه والعربية ولغات العرب... »[٥٨] وكان الأعمش« ...ثقة ثبتاً في الحديث... وكان رأسا في القرآن ... عالماً بالفرائض وكان لا يلحن حرفاً... »[٥٩].

وكان أبو عمرو بن العلاء: « من أعلم الناس بوجوه القراءات وألفاظ العرب ونوادر كلامهم وفصيح أشعارهم... » وله معرفة بأيام العرب وتاريخهم[٦٠].

هذا ولا بد لي قبل الحديث عن مساهمات القراء في جوانب المعرفة المختلفة التي كانوا روادها الأوائل، أن أشير إلى أنني سوف لن أتطرق إلى ما كانوا عليه من معرفة بقراءة القرآن ووجوه القراءات المختلفة، باعتبار أن ذلك كان من صميم اختصاصهم.

---

(٥٣) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج٩، (حيدر آباد، ١٣٢٧هـ)، ص٤٤٩.

(٥٤) البسوي ٢/٦٢٣.

(٥٥) كتاب الثقات، ج٣، (حيدر آباد، ١٩٧٣)، ص٢٣٠.

(٥٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، (بيروت، لا.ت)، دار الكتاب العربي، ص١٠٩.

(٥٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣/٣٩٦.

(٥٨) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٧، طبعة القاهرة، بعناية مرغوليوث، ص٢٩٦.

(٥٩) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤/٢٢٣.

(٦٠) الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ج١، تحقيق محمد سيد جاد الحق، (القاهرة، ١٩٦٩) ص٨٥.

wadod.org

القرّاء وتفسير القرآن:

كان القراء، بسبب علاقتهم الشديدة بالقرآن الكريم، من أوائل الذين اهتموا بتفسير القرآن، والوقوف على كنهه، وما كانت تنطوي عليه معاني الآيات الكريمة، وأسباب تنزيلها وتأويلها، وكل ما يتعلق بها من أحداث، وما تبع ذلك من ناسخ ومنسوخ، والى غير ذلك من علوم القرآن الأخرى، وقد حفت كتب التفسير المختلفة بضروب كثيرة ووافرة من مرويات أولئك القراء وآثارهم والتي كانت الأسس التي اعتمدها المفسرون الكبار الذين جاءوا بعدهم أمثال الطبري وغيره.

إن الإحاطة بمدى مساهمات القراء في التفسير تحتاج، كما أرى، إلى دراسة خاصة تستوعب تلك المساهمات، وحيث أن ذلك غير ممكن في دراسة كهذه فإن حديثي سيقتصر على الإشارة إلى أهم مساهمات أولئك القرّاء بشكل عام.

كان (عبد الله بن مسعود) الصحابي القارئ الجليل من أوائل الذين عرفوا بتفسير القرآن، وكان منهجه يقوم على تلاوة القرآن ومن ثم تفسيره[٦١]. وقد عرف عبد الله بن مسعود ما نُسخ من القرآن وما بدل كما يقول عبد الله بن عباس[٦٢] وقد وصفه الإمام علي بن أبي طالب بأنه «علم القرآن وعلم السنة ثم انتهى وكفى به علماً»[٦٣].

وكان ابن مسعود يفخر بمعرفته القرآن ويذكر ذلك لأصحابه وتلاميذه، وكان يقول، كما يروي ذلك عنه تلميذه مسروق بن الأجدع: «ما نزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل والمطايا لأتيته»[٦٤].

أما أبي بن كعب فكان من المفسرين أيضاً «... فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه... وقد أخرج ابن جرير [الطبري] وابن أبي حاتم منها كثيراً، وكذا الحاكم في مستدركه وأحمد [بن حنبل] في مسنده...»[٦٥].

---

(٦١) ابن الجزري، غاية النهاية، ١/٤٥٩.

(٦٢) أيضاً ٢/٣٤٢.

(٦٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/٤٠١.

(٦٤) ابن سعد ٢/ ٣٤٢.

(٦٥) السيوطي، الإتقان ٢/١٨٩.

wadod.org

أما عبد الله بن عباس فكان (ترجمان القرآن) كما يقول ابن مسعود[٦٦]، فقد عرف كثيراً من معاني القرآن ومعضلاته، وله تفسير عرف باسمه، ويبدو أنه كان يتبع طريقة ابن مسعود، فكان يقرأ القرآن ثم يفسره آية آية[٦٧]. وكان يتفكر في معاني القرآن ويقول: «لأن أقرأ في ليلة وأتفكر فيها أحب إليّ من أن أقرأ القرآن هذرمة»[٦٨] أي بسرعة.

وقد وصف أبو العالية الرياحي القارئ بأنه «... ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن...» منه[٦٩]، وكان إماماً في القرآن والتفسير[٧٠].

أما سعيد بن المسيب فكان مفسراً أيضاً، وقد أفرد أبو نعيم له حقلاً في ترجمته عنونه بـ(آثاره في التفسير) تكلم فيه عن جهوده في هذا العلم[٧١].

وكان (مجاهد بن جبر) القارئ من مشاهير المفسرين في زمانه، لزم ابن عباس مدة من الزمن وقرأ عليه القرآن، وكان يسأله (... عند كل آية... فيم نزلت؟ وكيف كانت)[٧٢]، ويقول له ابن أبي مليكة: «رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، فيقول ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله»[٧٣]. وقد انصرف مجاهد بن جبر انصرافاً كبيراً إلى التفسير، وكان يقول: «أستفرغ علمي التفسير»[٧٤].

وقد قدر بعض العلماء تفسير مجاهد فكان سفيان الثوري يقول: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»[٧٥].

---

(٦٦) ابن سعد ٢/٣٦٦.

(٦٧) ابن سعد ٢/٣٦٧؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/٧٤٩.

(٦٨) ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/٧٥٤.

(٦٩) السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، (القاهرة، ١٩٧٣هـ) ص٤٠.

(٧٠) الذهبي، معرفة القراء الكبار ١/٥٠.

(٧١) حلية الأولياء ٣/٢٨٣ ـ وما بعدها.

(٧٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/٩٢، ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٠/٤٣.

(٧٣) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، ج١، (القاهرة، ١٩٥٤)، ص٤٠.

(٧٤) ابن الجزري، غاية النهاية ٢/٤٢.

(٧٥) الطبري، جامع البيان ١/٤٠.

wadod.org

وقد حفل تفسير الطبري (جامع البيان) بروايات مجاهد في التفسير، وقد اعتمده الطبري في كثير من المواضع[٧٦]. وقد طبع تفسير مجاهد بكتاب سمي (تفسير مجاهد بن جبر)[٧٧]. وقد ذكر محقق الكتاب خصائص ذلك التفسير فقال: إن معظم تفسير مجاهد يشتمل على شرح الغريب وتعبيرات خاصة، وحل الكلمات الصعبة، وتوضيح الألفاظ الغامضة، وتبيين العبارات العويصة أو غير المألوفة. وفي كثير من آثاره التفسيرية يتجلى لنا مجاهد كأنه لغوي خبير قادر على كلام العرب ولغتهم... وفوق ذلك فإنه فقيه يدرك بقريحته الوقادة فحوى الكلام وكنه معنى الآية[٧٨].

ومن القراء المفسرين (عكرمة) تلميذ ابن عباس الذي وصف بأنه «... أعلم الناس بالتفسير...»[٧٩]. ويقول حبيب بن أبي ثابت: «... اجتمع عندي خمسة، طاووس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء، فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نَفِدَ ما عندهما جعل (عكرمة) يقول: أنزلت آية كذا في كذا)[٨٠]. ويبدو أن عكرمةَ كان بارعاً في التفسير لا يضارعه فيه أحد، فيروى أن الحسن البصري كان «... إذا قدم عكرمة البصرة أمسك عن التفسير والفتيا ما دام عكرمة في البصرة»[٨١].

وقد أفرد أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) باباً تحدث فيه عن جهود عكرمة وعلمه في التفسير سماه (أخباره في التفسير)[٨٢].

---

(٧٦) لا مجال لإيراد ما أخذه الطبري عن (مجاهد بن جبر) لأن مروياته مبثوثة في كل أجزاء تفسير الطبري.

(٧٧) طبع مجمع البحوث الإسلامية في باكستان هذا التفسير عن نسخة مصورة في جزأين وقد صدر عن (المنشورات العلمية) في بيروت بدون تاريخ.

(٧٨) راجع مقدمة المحقق الأستاذ عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي في الجزء الأول، ص٢٧.

(٧٩) ابن سعد ٣٨٥/٢.

(٨٠) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٦٦/٢.

(٨١) الداوودي، محمد بن علي، طبقات المفسرين، ج١، تحقيق علي محمد عمر، (القاهرة/ ١٩٧٢)، ص٣٨١.

(٨٢) حلية الأولياء ٣٢٩/٣ – ٣٤٧.

wadod.org

وكان الحسن البصري (ت: ١٢٠هـ) من القراء المفسرين الذي كانوا يملون على الناس التفسير[٨٣]، وكان الحسن يفسر القرآن بإثبات القدر، ويقول أحد من قرأ عليه القرآن: «قرأت القرآن على الحسن ففسره على الإثبات يعني إثبات القدر»[٨٤].

وقد اشتهر من القراء المفسرين أيضاً (قتادة بن دعامة الدوسي) الذي قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: (قتادة عالم بالتفسير وباختلاف العلماء)[٨٥]. وكان قتادة يقول: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً»[٨٦].

القراء والحديث النبوي:

كان للقراء دورهم الخاص في تثبيت الأحاديث النبوية الشريفة، عن طريق تدوينها وحفظها من الضياع، وقد ذكرت ذلك خلال حديثي عن التدوين، كما كان لهم دورهم في التفتيش عن الحديث وطلبه ومعرفة رواته، وقد ذكرت ذلك خلال حديثي عن الرحلة في طلب العلم.

وقد أسهم القراء في رفد الحديث النبوي بمروياتهم، التي اعتمدتها أشهر المؤلفات التي وضعت في الحديث النبوي، ويأتي في مقدمة أولئك القراء عروة بن الزبير، وعامر الشعبي، وابن شهاب الزهري وغيرهم، وليس هذا محل تفصيل جهودهم هنا، وسأكتفي هنا بإيراد بعض ما قيل عن أولئك القراء في هذا المجال.

كان أصحاب عبد الله بن مسعود من القراء يهتمون بإقراء الناس القرآن ولكنهم كانوا أيضاً (... يعلمون السنة ...) كما يقول إبراهيم النخعي، ومن أولئك القراء علقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعبيدة السلماني والحارث بن قيس وعمرو بن شرحبيل[٨٧].

وكان أبو العالية الرياحي (...ثقة كثير الحديث)[٨٨]، أما مجاهد بن جبر فقد كان (عالماً ثقة كثير الحديث)[٨٩]. وكان أبو البختري الطائي (كثير الحديث يرسل

(٨٣) ابن عبد البر، جماع بيان العلم ٨٩/١.
(٨٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٧٠/٢.
(٨٥) الداوودي ٤٣/٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٩٦/٤.
(٨٦) الداوودي ٤٣/٢.
(٨٧) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٩.
(٨٨) ابن سعد ١١٧/٧.
(٨٩) أيضاً ٤٨٧/٥.

wadod.org

حديثه، ويروي عن أصحاب رسول الله...)[٩٠]. أما عروة بن الزبير فكان أكثر الناس علماً بالحديث[٩١]. أما الأعمش فكان حافظاً للحديث، ويذكر علي بن المديني أن له نحواً من ألف وثلاثمائة حديث[٩٢].

وكان طاووس (... يعد الحديث حرفاً حرفاً)[٩٣]، أما سليمان بن يسار فكان، كما يقول الإمام مالك: من أعلم أهل المدينة بالسنن[٩٤].

وكان عامر الشعبي أول من فتش عن الأسناد في الحديث النبوي[٩٥].

أما ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) فقد كان من المهتمين بالحديث وروايته، وقد شارك، كما ذكرنا، في عملية جمع الحديث زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز.

ويذكر ابن حجر عن بعض رواته أن (... جميع حديث الزهري... ألفا حديث ومئتا حديث النصف منها مسند...)[٩٦].

وهكذا نرى أن القراء قد ساهموا بالاهتمام بالحديث حفظاً ورواية وسنداً فكانوا بذلك من أوائل المهتمين بذلك الجانب التشريعي الإسلامي الهام.

القراء والفقه والفتوى:

كان القراء، بسبب علمهم بقراءة القرآن وتفسيره، من أوائل الفقهاء، وعلماء الشريعة في الدولة العربية الإسلامية. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فقال، وهو يتحدث عن الفقه والفرائض: (... إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ من جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه... بما نقلوه عن النبي ... وكانوا يسمّون لذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب ...فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم... وبقي الأمر كذلك صدر الملة، ثم عظمت أمصار الإسلام، وذهبت الأمية عن

---

(٩٠) أيضاً ٦/٢٩٣.

(٩١) البسوي ١/٤٧٥.

(٩٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/١٥٤.

(٩٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٩.

(٩٤) البسوي، ١/٥٤٩.

(٩٥) الرامهرمزي، ص٢٠٨.

(٩٦) تهذيب التهذيب ٩/٤٤٧ – ٤٨.

wadod.org

العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء...)[٩٧].

ويبدو أن فلهاوزن فطن إلى تلك العلاقة بين (القراء) و(الفقهاء) فقال: (كان القراء على صلة وثيقة بالفقهاء، وكان وضعهم بالنسبة إلى هؤلاء الأخيرين شبيهاً بنسبة دائرة كبرى إلى دائرة داخلها أصغر منها)[٩٨].

والحقيقة فإن ما ذهب إليه فلها وزن ليس صحيحاً تماماً من الناحية التاريخية، فعلى الرغم من أن الفقهاء كانوا داخل دائرة القراء الواسعة ذات الاختصاصات المتنوعة، ولكن الفقهاء كانوا أحدث نشأة من القراء، فيما يتعلق بظهورهم لجماعة ذات تخصص محدد ومعروف.

وبعبارة أخرى: إن القراء كانوا الجماعة العلمية الأولى في الإسلام، كانوا، بسبب بساطة الحياة الإسلامية الأولى، هم الذين أقرؤوا القرآن وفسروه، وكانوا من العارفين بأحكامه، ثم تطورت الحياة الاجتماعية والثقافية في الأمصار الإسلامية فكان أن بدأ فيها، بتاريخ لاحق، نوع من التخصص أدى فيما بعد، إلى خروج جماعات من دائرة القراء الكبرى، مكونين قراءً محترفين، ومفسرين، وفقهاء، ومعلمين أصبح كل واحد منهم يمارس اختصاصه.

أما متى كان ذلك فليس لنا علم به بشكل مضبوط، وان كان نص ابن خلدون السابق قد وضح بعض جوانبه.

وقد خلت الكتب التي أرخت لتاريخ الفقه والتشريع الإسلامي، وعلى رأسها كتاب الدكتور محمد يوسف موسى (تاريخ الفقه الإسلامي)، وكتاب الشيخ محمد الخضري (تاريخ التشريع الإسلامي) من أية إشارة إلى طبيعة العلاقة بين (القراء) الذي كانت لهم جهودهم الخاصة، كما سأشير إلى ذلك بعد قليل، وبين (الفقهاء) وهي علاقة كان لا بد من إيضاحها ومعرفة تطورها بالنسبة لأولئك الذين يؤرخون لعلم من العلوم.

ولم أعثر على نصوص تشير إلى تاريخ انفصال (الفقهاء) عن (القراء) وإن كان النص الذي أورده محمد بن سعيد عن مجاهد بن جبر القارئ (ت ١٠٣هـ)

---

(٩٧) المقدمة، ص٣١٣.

(٩٨) الخوارج والشيعة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، (القاهرة، ١٩٥٨)، ص٢٠.

wadod.org

يشير إلى تبلور في بعض المفاهيم والاصطلاحات، يقول مجاهد بن جبر: (كنا نفخر على الناس بأربعة: بفقيهنا وقاصنا ومؤذننا وقارئنا، فأما فقيهنا فابن عباس... وأما قارئنا فعبد الله بن السائب...)[٩٩].

فهل كان ابن عباس (ت ٦٨هـ) يسمى فقيهاً في عصره؟ لا ندري فهذا الرجل المتعدد الجوانب الثقافية لم يقتصر علمه على الفقه حتى يسمى فقيهاً، إلا إذا كان الفقيه هو العالم المتبحر كما يشير إلى ذلك المعنى اللغوي، ذلك أن ابن عباس كان عالماً بفنون أخرى كالتفسير والشعر والأدب والتاريخ والمغازي، كما سأشير إلى ذلك فيما بعد.

على كل حال فالذي ذكرته كان لابد من توضيحه لمعرفة طبيعة العلاقة بين القراء والفقهاء.

وبعد: فما هي مساهمات القراء في الفقه والإفتاء؟

كان أكثر القراء، بسبب علاقتهم بالقرآن وعلومه، عارفين بأحكام القرآن، وكان لهم دورهم في الإفتاء والقضاء.

كان معاذ بن جبل، كما يروي أنس بن مالك عن الرسول (ص) (أعلم أمتي بالحلال والحرام)[١٠٠]. وكان الرسول (ص) قد أرسل معاذاً إلى اليمن قاضياً، كما جعله يفقه أهل مكة في الدين ويقرئهم القرآن الكريم، بعد فتح مكة، وكان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يقدر عالياً معرفة معاذ بالفقه، فقد خطب في الجابية (في الشام) فقال: (من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل)[١٠١]، وكان يقول، بعد خروج معاذ إلى الشام قارئاً وفقيهاً: (لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به...)[١٠٢].

أما عبد الله بن مسعود فقد كان من القائلين بالرأي[١٠٣]. ويبدو أنه كان صاحب مدرسة فقهية لها طلاب ومريدون، والى ذلك أشار علي بن المدني مؤرخ

---

(٩٩) الطبقات الكبرى ٤٤٥/٥، وانظر كذلك أبو نعيم ٢٦٧/٣.

(١٠٠) ابن سعد ٥٨٦/٣.

(١٠١) أيضاً ٣٤٨/٢.

(١٠٢) أيضاً ٣٤٨/٢.

(١٠٣) هاشم جميل عبد الله، فقه الإمام سعيد بن المسيب، ج١، (بغداد، ١٩٧٤)، ص١٣٥.

wadod.org

الفقه المشهور حيث يقول: (... لم يكن أحد من أصحاب رسول الله له أصحاب يقومون بقوله في الفقه إلا ثلاثة: عبد الله بن مسعود وزيد (ابن ثابت) وعبد الله بن عباس: فإنهم كان لكل واحد منهم أصحاب يقولون بقوله ويفتون الناس، فكان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس بقراءته ويفتونهم بقوله ويذهبون مذهبه، علقمة والأسود ومسروقاً وعبيدة السلماني وعمر بن شرحبيل والحارث بن قيس ستة هكذا عدهم إبراهيم النخعي (القارئ والفقيه)، وكان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله ومذهبه إبراهيم والشعبي)[١٠٤]. وكان مسروق بن الأجدع أعلم من شريح القاضي في الفتوى، كما يقول الشعبي[١٠٥]. أما عبيدة السلماني فكان يوازي شريحاً في علمه، وكان إذا أشكل على شريح أمر سأل عبيدة عنه[١٠٦].

واشتهر زيد بن ثابت بالفتوى والفقه أيضاً، فقال عنه الرسول: (أفرض أمتي زيد...)[١٠٧]، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يقول: (من كان يريد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيداً...)[١٠٨]. وكانت لزيد الرئاسة في القضاء والفتوى[١٠٩] والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي (رض) بالمدينة، وقد بقي كذلك حتى مات سنة ٤٥هـ.

يبدو أن زيداً كون ما يشبه مدرسة فقهية في المدينة كان لها تلاميذ ورواد، وقد أشار علي بن المديني إلى ذلك فقال: إن أصحاب زيد كانوا قسمين:

الأول: (الذين يذهبون مذهبه في الفقه ويقولون بقوله) ومنهم قبيصة بن ذؤيب وخارجة بن زيد وأبان بن عثمان والقارئ المعروف سليمان بن يسار.[١١٠]

---

(١٠٤) ابن بدران، عبد القادر بن أحمد، تهذيب التهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٥، (بيروت، ١٩٧٩)، ٤٥٤.

(١٠٥) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٣.

(١٠٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٨٤/٧.

(١٠٧) ابن سعد ٣٥٩/٢.

(١٠٨) أيضاً ٣٥٩/٢.

(١٠٩) أيضاً ٣٦٠/٢

(١١٠) ابن بدران ٤٥٢/٥.

wadod.org

أما القسم الثاني : فهم (الذين يقولون بقوله ممن ثبت لهم لقاؤه) وكان على رأس أولئك من القراء سعيد بن المسبب وعروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله وغيرهم، وكان أعلم الناس بعلم زيد وأصحابه ابن شهاب الزهري ثم مالك بن أنس[١١١].

أما عبد الله بن عباس فكان من الفقهاء أيضاً، وكان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد اعتمد عليه كثيراً في مسائل الفقه والفرائض[١١٢]، وكان يفتي في المدينة على عهد عمر وعثمان وبقي كذلك حتى مات[١١٣]. وكان يجتهد في رأيه إن لم يجد في القرآن والسنة ما يعينه على الفتوى والقضاء[١١٤] وبشكل عام فإنه (... كان يعني باستخراج الأحكام من القرآن...)[١١٥].

وقد عد أربعة من القراء من جملة الفقهاء السبعة بالمدينة وهم : سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عنبة وسليمان بن يسار[١١٦]. أما سعيد بن المسبب فكان يفتي وأصحاب رسول الله أحياء[١١٧]. وكان يقول : (ما بقي أحد أعلم بقضاء رسول الله... وأبي بكر وعمر مني...)[١١٨]. وقد عرف بالمدينة باسم (فقيه الفقهاء) وكان متقدماً في الفتوى[١١٩] وقد وصفه أحد الباحثين بأنه (... رأس مدرسة الحديث وإمامها بلا منازع)[١٢٠]. وقد اشتهر سيلمان بن يسار بالعلم الفقه، وكان أعلم الناس بالمدينة بالطلاق وأحكامه، وقد

---

(١١١) أيضاً ٤٥٢/٥.

(١١٢) ابن سعد ٣٦٦/٢.

(١١٣) أيضاً ٣٦٦/٢.

(١١٤) أيضاً ٣٦٦/٢.

(١١٥) راجع مقدمة الشيخ محمد أبو زهرة لموسوعة الفقه الإسلامي، ج١، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص١٥.

(١١٦) أبو نعيم ١٦١/٢.

(١١٧) ابن سعد ٣٧٩/٢.

(١١٨) أيضاً ٣٧٩/٢.

(١١٩) ايضاً ٣٧٩/٢.

(١٢٠) هاشم جميل عبد الله، فقه الإمام سعيد بن المسبب ٦/١ ـ ٧.

wadod.org

قدر علمه زميله سعيد بن المسيب فقال لأحدهم: (اذهب إلى سليمان بن يسار، فإنه أعلم من بقي اليوم)[١٢١].

ويبدو أن (مسلم بن يسار) كان من كبار فقهاء البصرة، قال أحد معاصريه: (أدركت هذا المسجد وما فيه حلقة يذكر فيها الفقه إلا حلقة مسلم بن يسار)[١٢٢].

وكان عامر الشعبي من الفقهاء المعروفين في الكوفة، قال عنه مكحول الشامي: (ما رأيت أحداً أعلم بالسنة الماضية من الشعبي)[١٢٣] وكان الشعبي لا يحبذ الأخذ بالقياس في مسائل الفقه[١٢٤] وكان اعتماده، بشكل أساسي، على الكتاب الكريم والسنة.

أما عطاء بن أبي رباح فقد كان (من أجلاء الفقهاء)[١٢٥]. وكان أعلم الناس بمناسك الحج[١٢٦]. وقد انتهت إليه فتوى أهل مكة في زمانه[١٢٧]. ويبدو أن عطاء قد خلف عبد الله بن عباس في الفتوى بمكة فقد (كانت الحلقة في الفتيا بمكة وفي المسجد الحرام لابن عباس وبعد ابن عباس لعطاء...)[١٢٨].

وكان ابن شهاب الزهري فقيهاً لامعاً، قال فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز: (لم يبق أحد أعلم بسنّة ماضيه منه)[١٢٩]، ويقول الإمام مالك بن أنس: (ما أدركت بالمدينة فقيهاً محدثاً غير واحد: ابن شهاب الزاهري)[١٣٠].

---

(١٢١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤/٢٢٩.

(١٢٢) الشيرازي، إبراهيم بن علي، طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، (بيروت، ١٩٧٠)، ص٨٨.

(١٢٣) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ج٢، (بيروت. لا. ت) عالم الكتب، ص٤٢٧.

(١٢٤) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص٥٨.

(١٢٥) الشيرازي، ص٦٩.

(١٢٦) ابن سعد ٢/٣٨٦.

(١٢٧) أيضاً ٥/٣٧٠.

(١٢٨) أبو نعيم ٣/٣١١، ابن الجوزي، صفة الصفوة ٢/٢١٢.

(١٢٩) أبو نعيم ٣/٣٦٠، ابن حجر، تهذيب التهذيب ٩/٤٤٩.

(١٣٠) ابن سعد ٢/٣٨٨.

wadod.org

القراء والعربية[١٣١] :

يرجع اهتمام القراء بالعربية (... إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحاً إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة...)[١٣٢]، وذلك أمر أدى إلى (... البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه...)[١٣٣]. وكان لذلك الأمر نتائجه المباشرة (...في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها...)[١٣٤].

ومن هنا جاء اهتمام القراء بالعربية لتأدية تلاوة القرآن الكريم تلاوة صحيحة، لذلك فان (القراء تشربوا بمزايا العربية وقواعدها ودقائقها، ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كالفراء كانوا مبرزين في علم القراءة كما كان الكثيرون من أيمة القراء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو)[١٣٥].

ومهما يقال من كون أبي الأسود الدؤلي قد وضع النحو العربي، أو وضعه نصر بن مزاحم[١٣٦]، وهو قارئ، فان تلاميذ أبي الأسود (كانوا من قراء الذكر الحكيم... أحاطوا لفظ القرآن الكريم بسياج يمنع اللحن فيه...)[١٣٧] وبذلك (... رسموا في دقة نقط الأعراب... كما رسموا نقط الحروف المعجمة مثل الباء والتاء والثاء والنون)[١٣٨].

يتضح مما سبق أن العلاقة قوية ومتبادلة بين القراء وبين علماء النحو والذين يمكن أن يكونوا، في البداية، جماعة واحدة. وفي الحلقات الإقرائية زرعت

---

(١٣١) إن مصطلح العربية: (... كان يعنى به ما يشمل النحو والصرف والغريب واللهجات والأصوات)، راجع: الحلواني، محمد خير، المفصل في تاريخ النحو العربي، ج١، (بيروت/ ١٩٧٩)، ص١٢.

(١٣٢) ضيف، شوقي، المدارس النحوية، الطبعة الثالثة، (القاهرة، ١٩٧٦)، ص١١.

(١٣٣) راجع، مقدمة الأستاذ أوتوبرتزل لكتاب أبي عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، (اسطنبول، ١٩٣٠)، ص ج.

(١٣٤) أيضاً، ص ج.

(١٣٥) أيضاً، ص ج.

(١٣٦) ابن النديم، محمد بن إسحق، الفهرست، مطبعة الاستقامة، (القاهرة، لا. ت). ص٦٥.

(١٣٧) شوقي ضيف، المصدر السابق، ص١٧.

(١٣٨) أيضاً، ص١٧.

wadod.org

(...بذور المدرس اللغوي، لأن القراءة تثير من مسائل اللغة ما لا قبل لجميع الناس به يومئذ...)[١٣٩].

كان للبصرة أثرها الهام في الدراسات النحوية، وكان للقراء الأثر الهام في تلك الدراسات، ويقول شوقي ضيف، بعد أن تحدث عن جهود أبي الأسود الدؤلي في النحو (وحمل هذا الصنيع عن أبي الأسود تلاميذه من قراء الذكر الحكيم، وفي مقدمتهم نصر بن مزاحم وعبد الرحمن بن هرمز ويحيى بن يعمر)[١٤٠].

أما نصر بن مزاحم الليثي القاري فتذكر بعض الروايات أنه أول من وضع العربية وكان أول من نقط المصاحف[١٤١]. فكان (من الرعيل الأول إذ أسهم في الحركة النحوية مع أستاذه أبي الأسود...)[١٤٢].

كما كان يحيى بن يعمر عالماً بالعربية أيضاً[١٤٣]، ويقال أيضاً أنه أول من نقط المصاحف[١٤٤] (ترك... في حقل القراءات القرآنية مجموعة من القراءات تناولها النحاة المتأخرون بالدراسة والبحث)[١٤٥].

أما عبد الرحمن بن هرمز الأعرج قارئ المدينة فكان من تلاميذ أبي الأسود[١٤٦]، اخذ من أستاذه العلم، ويقال إنه أول من وضع العربية[١٤٧]. وقد قيم الأستاذ عبد العال مكرم جهود (الأعرج) في النحو وماله علاقة بالقراءات فقال: إنه (ترك لنا قراءات قرآنية كانت مثار جدل، وميدان دراسة بين النحويين

---

(١٣٩) الحلواني، المصدر السابق، ص١١.

(١٤٠) المدارس النحوية، ص١٦.

(١٤١) ابن النديم، ص٦٥، الذهبي، معرفة القراء الكبار ٥٨/١؛ ابن الرازي، غاية النهاية ٣٣٦/٢.

(١٤٢) مكرم، عبد العال سالم، الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ق١، (الكويت، ١٩٧٧)، ص٤.

(١٤٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص٢١٧.

(١٤٤) السيوطي، طبقات الحفاظ. ص٣٠.

(١٤٥) مكرم، المصدر السابق، ص٩١.

(١٤٦) الذهبي، معرفة القراء الكبار ٦٤/١.

(١٤٧) ابن النديم، ص٦٥، الذهبي، معرفة القراء الكبار ٦٤/١.

wadod.org

واللغويين في العصور التي جاءت بعده)[١٤٨]. ويقول أيضاً: (إن ابن هرمز أثر في الدراسات النحوية بهذه القراءات التي أسهمت في خصوبة النحو العربي طوال هذه القرون)[١٤٩]. ويذكر أن تلك القراءات (لم تخرج عن سنن النحو العربي، وان لها من الأدلة ما يجعلها قراءة سليمة لا يتسرب إليها الضعف من الناحية اللغوية والنحوية...)[١٥٠].

هذا وقد أشارت مصادرنا العربية القديمة إلى مجموعة طيبة من القراء كان لها دورها الهام في الدراسات النحوية، أمثال أبي عمر وبن العلاء وزر بن حبيش وعاصم بن أبي النجود ومحمد بن عبد الرحمن بن محيض مسلم بن جندب وعبد الله بن كثير ويعقوب الحضرمي وغيرهم.

مساهمات القراء في التاريخ والمغازي والسير:

أسهم القراء في رفد التاريخ والمغازي بمرويات كثيرة حفلت بها كتب التاريخ والمغازي والسير. وكان بعض أولئك القراء، كما سنرى، رواداً في تلك العلوم ومن أوائل المساهمين فيها.

لقد اشترك كثير من القراء في الأحداث التاريخية التي حدثت في صدر الإسلام والخلافة الأموية، وكانت لهم مروياتهم عنها، كما كان بعضهم شاهد عيان لبعض تلك الأحداث، وكان البعض منهم قد سمعها من رواتها من الصحابة والتابعين.

يمكننا أن نقسم مساهمات القراء في حقل التاريخ والمغازي إلى قسمين:

١ـ ما روي عن بعضهم من أخبار تاريخية ومغاز، ويأتي على رأس أولئك القراء عكرمة تلميذ ابن عباس والحسن البصري وعامر الشعبي.

٢ـ أما القسم الثاني من القراء فقد أسهم في دراسة التاريخ والمغازي، وذلك عن طريق تأليفه فيها، ومن ثم تطويره لعلم التاريخ والمغازي، ولعل أشهر أولئك القراء عروة بن الزبير وتلميذه ابن شهاب الزهري.

---

(١٤٨) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ص٥٩.

(١٤٩) أيضاً ص٥٩.

(١٥٠) أيضاً، ص٥٩.

wadod.org

لقد حفلت كتب التاريخ والمغازي، وبعض كتب الفقه والحديث مما لـه علاقة بمغازي الرسول (ص) وتاريخه وسيرة أصحابه بمرويات القراء، أمثال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو العالية الرياحي وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وزيد بن ثابت ومجاهد بن جبر وطلحة بن مصرف وغيرهم، كما حفلت تلك الكتب بمرويات ابن عباس وتلميذه عكرمة والحسن البصري وعامر الشعبي وعروة بن الزبير والزهري، الذين كانوا أكثر اهتماماً بالمرويات التاريخية من غيرهم من زملائهم من القراء.

إن البحث في القيمة العلمية لمرويات القراء التاريخية يحتاج إلى دراسة خاصة تعتمد على جرد تلك المرويات ودراستها دراسة موضوعية، ومعرفة مدى قيمتها العلمية وبالتالي أثرها في علوم التاريخ والمغازي والسير. ولما كان لذلك العمل خطورته من جهة، وسعته من جهة أخرى، فإن بحثي هنا سيقتصر على أولئك الذين كان لهم باع واسع في تلك العلوم وما قيل في مروياتهم.

كان عبد الله بن عباس ممن اهتم بالمغازي، فكان يأتي أبا رافع مولى الرسول ويسأله عن سيرة الرسول (ص) وأعماله[١٥١]. كما كان يسأل عن المغازي بعض أصحاب الرسول، يقول ابن عباس: (... كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله... من المهاجرين والأنصار فاسألهم عن مغازي رسول الله... وما نزل من القرآن في ذلك...)[١٥٢]، وقد خصص ابن عباس يوماً من أيام الأسبوع ليتحدث فيه عن المغازي، وقد استفاد الواقدي صاحب كتاب مغازي الرسول، كثيراً من مرويات ابن عباس في كتابه المشار إليه[١٥٤].

وقد اهتم عكرمة تلميذ ابن عباس بالمغازي أيضاً، ويبدو أنه كان يرويها للناس بطريقة كانت تثير فيهم الشوق والانتباه فكان، كما يقول أحد الرواة: (... إذا تكلم في المغازي فسمعه إنسان قال: كأنه مشرف عليهم يراهم)[١٥٥].

وفي رواية أخرى: «كأنه مشرف عليهم ينظر كيف كانوا يصنعون ويقتتلون»[١٥٦].

---

(١٥١) ابن سعد ٢/٣٧١.

(١٥٢) أيضاً ٢/٣٧١.

(١٥٤) راجع فهارس كتاب المغازي بتحقيق الأستاذ مارسدن جونس لمعرفة مدى استفادة الواقدي من مرويات ابن عباس المشار إليها.

(١٥٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٧/٢٦٦.

(١٥٦) أبو نعيم ٣/٣٢٨.

wadod.org

وقد وردت مرويات عكرمة في المغازي عند الواقدي عن أستاذه ابن عباس وقلما انفرد بذكرها من دونه.

وكان عامر الشعبي القارئ راوياً لكثير من الأحداث التي وقعت في صدر الإسلام والخلافة الأموية، وتتجلى قيمة مروياته من الأحداث التي كان فيها شاهد عيان[١٥٧].

وقد قيّم عبد الله بن عمر بن الخطاب مرويات الشعبي عن المغازي، فقد مر به (وهو يحدث بالمغازي فقال: لقد شهدت القوم فلهو أحفظ لها وأعلم بها)[١٥٨].

وبلغت السيرة النبوية والتاريخ أوجهما عند عروة بن الزبير وتلميذه ابن شهاب الزهري، وقد خصتهما الدارسات التي وضعت في علم التاريخ عند العرب بعناية خاصة، لما توصلا إليه من نتائج، وما قاما به من بحوث[١٥٩].

أما عروة بن الزبير فكان أول من ألف في المغازي[١٦٠] (أسلوب عروة في التأليف بسيط، بعيد عن الإنشاء، في حين أن نظرته واقعية صريحة خالية من المبالغات، وقد مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية من عائشة وفي آل الزبير أسرته، وقد حصل على بعض الوثائق، كما أشار إلى آيات قرآنية تتصل بالحوادث...) مع إيراده لبعض الشعر[١٦١] هذا (وتمثل كتابات عروة ... أقدم المدونات التي حفظت لنا من حوادث خاصة في حياة النبي، كما تمثل أقدم نصوص النثر التاريخي العربي...)[١٦٢].

---

(١٥٧) راجع مثلاً: البلاذري، أنساب الأشراف مخطوطة د. عبد الأمير دكسن، الورقة ١٤٥ ب، الطبري: تاريخ الرسل ٦/ ١٥ – ١٨، ٩٣، وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي، ج٦، ص٢٥٤، وما بعدها.

(١٥٨) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٦٧.

(١٥٩) أنظر: الدوري، عبد العزيز، بحث في نشأه علم التاريخ عند العرب، (بيروت/ ١٩٦٠)؛ حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، هو روفتر، المغازي الأولى ومؤلفوها، مقالة الدكتور خليل إبراهيم الكبيس عن عروة بن الزبير في العدد الرابع من المجلد الأول من مجلة المورد البغدادية، حيث تناول الجميع جهود عروة وتلاميذه.

(١٦٠) السيوطي، الوسائل إلى مسامرة الأوائل، بتحقيق محمد أسعد طلس، (بغداد/ ١٩٥٠)، ص١١٥.

(١٦١) الدوري، المصدر السابق، ص٢١ – ٢٢.

(١٦٢) هورفتر، المصدر السابق، ص٢٢.

wadod.org

وروايات عروة (...لا تهمل الأسناد إهمالاً تاماً، كما أنها لا تعنى به عناية مشددة...)[١٦٣].

أما ابن شهاب الزهري فهو (... أول من أعطى السيرة . . هيكلاً محدوداً ورسم خطوطها بوضوح)[١٦٤]. وقد (أخذ... جل موارده عن السيرة من الحديث، ولا نجد إلا أثراً بسيطاً للقصص فيما كتب، كما أننا نجد صدى ضعيفاً في مادته لقصص الأنبياء. ومع أن الزهري كان يحب الشعر... إلا أن استعماله له محدود في مغازيه، وهو بعيد عن أسلوب الأيام في كتابته)[١٦٥]. هذا وتناولت دراسات الزهري أيضاً فترة الخلفاء الراشدين[١٦٦]، ويرى الدوري أن الزهري قام بخدمة للتاريخ حينما كتب مروياته (ويعتبر أول من فعل ذلك بصورة منظمة)[١٦٧] وعلى الرغم من اعتماد الزهري في مغازيه وتاريخه على أستاذه عروة بن الزبير[١٦٨] إلا أنه روى عن قراء آخرين منهم سعيد بن المسيب[١٦٩]، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة[١٧٠] وكذلك أنس بن مالك[١٧١].

ومن تلاميذ الزهري الذي كان لهم دورهم الكبير في المغازي تلميذه موسى بن عقبة الذي يعتبر كتابه في المغازي من أصح الكتب كما يرى يحيى بن معين[١٧٢]،

---

(١٦٣) حسين نصار، المصدر السابق، ص٣٢.

(١٦٤) الدوري، المصدر السابق، ص٣٢؛ وراجع أيضاً بحثه: دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن الحق، (بغداد، د .ت)، ص٦٦.

(١٦٥) الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عن العرب، ص٢٣.

(١٦٦) أيضاً، ص٢٤.

(١٦٧) أيضاً، ص٢٤.

(١٦٨) لقد انتشرت مرويات الزهري عن أستاذه عروة بن الزبير في كتب السيرة والحديث والتاريخ والفقه، وهو أمر لا مجال لدراسته هنا. والحق أن هذه المرويات بحاجة إلى دراسة منفصلة ونقدية قائمة بذاتها.

(١٦٩) أنظر مثلاً ابن هشام ٢٩٥/٣؛ الواقدي، المغازي ١م١٠٣، ٢٥٠؛ ٢م٦٢١، ٦٩٦، ٧١٥، ٩٤٥/٣.

(١٧٠) ابن هشام ١٣/٤، ١٦٣، الواقدي ٤٣٥/٢، ٦٩٥، ٧١٧ن ٨٧١، ٨٩٠/٣، الطبري، ٤٩/٣، ٢٠٢.

(١٧١) الواقدي ٣١٠/١، الطبي ١٩٨/٣، ٢١٠.

(١٧٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٦١/١ – ٦٢.

wadod.org

أما تلميذه الآخر فهو محمد بن إسحق الشهير صاحب السيرة الذي أورد الكثير من الروايات في السيرة عن استاذه مباشرة.

والحق أن مرويات الزهري عن أستاذه عروة بن الزبير وعن غيره من الرواة كانت معيناً لا ينضب لكثير من الرواة وأصحاب التواريخ والسير.

وبعد: فهذه بعض مساهمات القراء في الحياة الفكرية في صدر الإسلام والخلافة الأموية، وهي مساهمات أصلية وقيمة على كل حال.